دائرة النسيان

روايـة

د. ذياب فهد الطائي

ملاحظة:تمت طباعة الرواية في عمان ,مكتبة الطليعة العلمية 2019

تنوية:فتزت الرواية بالجائزة الثالثة في مسابقة الابداع الادبي في العراق عام 2008

الفصل الأول

السماء مقبضة والظلام يلف كل شيء وغيوم كثيفة متدنية تتسارع باتجاه الجنوب , فجأة يندفع ضوء سريع يومض بعصبية مجنونة ثم يعقبه صوت عاصف يغطي السماء كلها , عوى كلب وحيد في البستان المجاورة وكأنه ينوح بحرقة , ربما ضل طريقه وهو الان يرتجف خائفا.

كان البستان الذي يحيط اليوم بالقرية التي تم إحاطتها بسياج كونكريتي بارتفاع ثلاثة امتار، ارضا بورا أهدتها القرية ل (الكلي المعرفة) بعيد ميلاده الواحد بعد

الألف , ذهب المهندسون وخبراء الزراعة للبحث عن الأشجار واخيرا تم اختيار النخيل لأنها مقدسة ومن أشجار الجنه كما أن منظرها والرطب الجني يتدلى منها صيفا ، سيجعل القرية على ضفاف النهر،عنوانا كبيرا للبهجة وستكون كل صباحات الصيف المملة مزينة بخضرة شامخة وستختفي النظرات المشوشة للبدو الذين يسكنون خارج القرية وهم يتطلعون الى النخيل بكل وقاره يرتفع متطلعا نحوهم وحينها سيشعرون حتما بسعادة غامرة لأن هذ النخيل القادم من الجنوب يتطلع نحوهم بكل هذه الجدية ، لكن أناث النخيل لم يكن ليروق لهن ان يؤتى بهن الى قرية ليس فيها (قابلة) ولهذا رفضن وباصرار، بدا تواطئا يعاقب عليه، بان لا يعرّضن انفسهن للحمل وادّعين بأنهن عقيمات ألأمر الذي دفع (الكلي المعرفة) الى اتخاذ إجراءات مشددة بشأن المهندسين الذين جلبوا النخيل من جنوب البصرة!!

قالت امرأة بصوت حازم : اليوم أو لاشيء

قال رجل بصوت متخاذل فيه رنة توسل : غدا

صرخ الكلب مستفسرا وهو يستطلع الظلام القاتم كلون الكحل في عيني عروس القرية التي زفت في العام الماضي.

قال الرجل : لا , هذا كثير

قالت المرأة : سأرقد على الأريكة

قال الرجل : بالأمس ماتت أمي وقبلها بساعتين مات أبي

قالت المرأة : لست اليتيم الوحيد!

سطع الضوء ثانية فتلفتت غزالة مرعوبة ، ثم قفزت ، فيما سد الرعد أذنيها فاصطدمت بجذع نخلة غزتها شيخوخة مبكرة.

قال الرجل : حين كنت أسير خلف (الحاكم) لم تفعلي هذا ؟

قالت المرأة : لماذا لاتقول , حين كنت التقط بذور الرماد الأخضر

قال الرجل : لم تكن السماء بهذه القتامة وكان (هو) يقف بكبريائه أمام المرآة يصبغ شواربه الكثة، بعد ان أوعز بأن تبدأ الألعاب النارية، وكانت أمي قد تم وضعها بعناية في قبر صغير خارج المدينة , لم أستطع ان أشتري لها قبرا ملائما فقد ارتفعت الأسعار في كل مكان , ولم يوافق (الحاكم) على صرف سلفة لي بعد ان علم بأني أرسلت لك سلة البيض الملون الذي اعطاني اياه لتوزيعه في مجلس العزاء.

قالت المرأة : هذا لتتعلم ! و(هو) الكلّي المعرفة , ماتت امه أيضا

قال الرجل : نعم ولكنها حصلت على قبر محترم , هل تصدقين انه اكبر من الحي الذي نسكن فيه , لم يوافق الحاج (عليان) على ترك أرضه ليبنى فيها القبر ولكن المسكين لاقبر له الآن ، أما اولاده فقد وظفهم (ألكلي المعرفة) في مكان ما.

انكشفت رقعة صغيرة من السماء وبدت بضع نجيمات نزقة يتراقصن كمراهقات في حديقة وضع الربيع فيها أسراره.

!قالت المرأة : ولكن متى مات أبوك ؟

قال الرجل : في ديسمبر , كنت في المدرسة , سألني تلميذ مشاغب أي ديسمبر , الذي يأتي قبل نيسان أم الذي يأتي بعده؟! كان السؤال مربكا وغير حياديي اضافة الى أني لا أعرف.

ناح الكلب في الغابة المجاورة بصوت مقهور، فيما انهمر مطر بمزاج شرس يضرب ألأرض بعدوانية وأشتد صخب الرعد.

قالت المرأة: الوردة الوحيدة في شرفة الجيران ، ربما ماتت الان ؟

قال الرجل : في شرفتنا لاتوجد ورود

قالت المرأة : لماذا لا تدعو لايقاف الرعد ؟

قال الرجل : ولا تنامي على الأريكة

قالت المرأة : الشاي البارد يبعث على الغثيان

قال الرجل : أنت مشاكسة والرعد لن يتوقف والشاي البارد سيكون أفضل غسيل للعيون.

قالت المرأة : كانت أمك تشرب الشاي البارد ، هل يشرب الموتى الشاي ، ليس بالضرورة الساخن أعني أي شاي ؟

تنفست الغزالة بعمق وهي تستفيق وشربت من ماء المطر ثم شّمت رائحة الكلب الذي كان يقترب .

قال الرجل : حين تموتين لن تشربي , وهم يعطون هناك ماء جاريا

!قالت المرأة : وهل سيكون اشد من جريان المطر هذه الليلة ؟

قال الرجل : لا أدري ! و(الكلي المعرفة) الذي يدري بكل شيئ قد ذهب، وحتى ساعة رحيلة كان لايزال يعتني بشواربه الكثة السوداء كالفحم الذي نشتريه من (عطوان)

قالت المرأة : الأريكة قاسية

لم يعلق الرجل فقد كان يتابع عيني الكلب الذي ضل طريقه , كانتا عينان لونهما ازرق ولكن عكر؛ تشوبه تلوّنات رمادية خبيثة ربما سكن فيهما شيطان صغير هارب من عائلة قاسية كانت تريد ان تربيه ليكون (محافظا) في واحدة من مدن الجنوب ، في حين كان هو وبعض الصغار يرغبون أن يلهوا في ملعب كرة القدم الوحيد في المدينة ولم يبد عليهم أي ميل للأنضباط العائلي

لايدري لم تذكر (ألكلي المعرفة)! , ومضت ذكراه في مخيلته تماما كالبرق الذي يلتمع عاصفا في السماء الأسيرة كلية بغيوم مثقلة بالمطر والرعد.

كانت عينا (الكلي المعرفة) شديدة اللمعان , حسنا , انهما سوداوان ويقال ان الطبيب الخاص بالقصر يعطيه جرعات يومية من دواء سحري صنعه من أعشاب سرية ليظل يحتفظ بقدراته الذكورية التي تليق به و بذلك اللمعان في عينيه . ولكن الغريب أن (عطوان) أبو الفحم يشيع بانه رآه قبل ايام في(سوق الغزل) في بغداد وكان يحاول ان يبيع قطة شامية تضحك باستمرار وكانت عيناه

كابيتان ، فقد انتهى اللمعان , وبالطبع لم يشتر أحد القطة ، إذ من هو المجنون الذي يشتري قطة تضحك ؟

قالت المرأة: كلكم مجانين لأنكم تركتموه يذهب ! اذ قد تجدون من يشتريه

قال الرجل : انت بسيطة وتتوهمين ذلك فمن يشتري (كلّي المعرفة) خطرا

!قالت المرأة : كيف يكون خطرا ؟

قال الرجل : لأنه شديد الذكورة وتلتمع عيناه باستمرار

قالت المرأة: صحيح ، ولكن هل لاحظت ان عينيه تلتمعان بصلف بالغ الخبث

قال الرجل : نعم , وقد أخبرني الرجل ذو الشعر الأحمر والوجه اليابس والذي كان يعمل معه ان ابنة (الكلّي المعرفة) تستجدي ألان عند مدخل الحضرة وفي يدها(كاسة) من الذهب تصدر رنينا حادا ولكنه صاف كأنه رجع صدى رغبات مجنون , وعيناها تلتمعان بصلف ايضا.

قالت المرأة : هل يمكن أن أعود ؟

دقت ساعة الحائط الرابعة وخرج عصفور بلونين ولكن صوته انحبس فقد كان خائفا حد الموت

قال الرجل : سيأتي الفجر

قالت المرأة : لن يأتي فقد رحل ولايمكنه العودة فالمدينة يحاصرها المطر والرعد

صرخ الكلب يستجدي العون فقد علق بين الأغصان التي القت بها العاصفة ولكن الغزالة لم تتقدم نحوه

!قال الرجل : هل أساعدك ؟

قالت المرأة : البرد اصبح أشد من أن يطاق

قال الرجل : ستغمض عيون القرية

قالت ألمرأة : كانت دائما مغمضة

أنّ السرير الخشبي الموضوع قبالة الشباك وصمتت المرأة فيما كانت عينا الرجل مفتوحتين تشربان الظلمة وضوضاء المطر وعصف الرعد الصاخب.

الفصل الثاني

خشي الكلب ان يتقدم عند حافة البستان ، فالصحراء تفتح افقا لاحدود له وقد تأكله حبات الرمل قبل ان يجد الماء ، وقالت الغزالة انها تفضل ان تموت عند جذور شجرة الصفصاف , التي تحوّل لونها الى الصفرة , على ان يأكلها دود الصحراء الشرس.

قال الرجل : الشمس اليوم ساطعة وكأنها تتحدى من يستطيع أن يجد ملجأ بعد ان أكل الظل أشعتها

قالت المرأة : ولكنك ملزم بالخروج ،إحمل مظلة بيضاء ولكن احرص أن تكون العصى طويلة فقد يلزمك ان تضرب الكلب ، كان(الكلي المعرفة) يقول ان الكلاب ليست من سكان الجنة ولهذا فهي تعمل دائما مع الشياطين ، هل تصدق ذلك ؟

قال الرجل: ياسيدتي مايقوله (هو) يبدو في معظم الأحيان غير قابل للتصديق ولكن لأنه الحقيقة المطلقة فقد صدقته الكلاب واعلنت صراحة انها لاتفكر بالذهاب الى الجنة

لم يخرج الرجل فقد تقدمت الصحراء لتقف عند الباب المطل على الحديقة حيث لم يزرع اية اصص للورد ، حتى ولا فسيلا صغيرا لنخلة وفكر ثانية ب (الكلي المعرفة) الذي كان يجلس القرفصاء مركزا انتباهه على مجموعة من (النمل) الذي يعود في نسبه الى المجموعة نفسها التي هربت من نبي الله (سليمان) في فلسطين ولكنها بسبب عوامل بيئية بالغة التعقيد تغير لونها في الشمال الأوسط الى لون هو اقرب الى الأبيض , كان التتابع في مسيرها المنتظم قد عطل لديه معرفة الذكور من ألإناث وكان هذا ألأمر يشغله بحيث لم يعد يفكر بأمر آخر لأنه ان لم يعرف ذلك فكيف يستطيع الجزم بأن العدالة ستتحقق في قضية تتعلق بالتكوينات الجينية لتواصل الأنجاب ؟

لقد تزوج رسميا ثلاث مرات ولكن زيجاته غير الرسمية لايتذكرها وكان لديه من ألبنات عددا لم يكلف نفسه باحصائهن ولكنه على الرغم من ذلك توقف عن الأنجاب لأن عرافة غجرية دفع لها اعداؤه لتعمل على اخصائه وهكذا كان يستمتع بأناثه وهو ينظر اليهن يتجولن في الحديقة التي لاتدخلها الشمس وهن عاريات , ولكن القناة الفضائية كانت تنشر كل ليلة قصصا مشوقة عن مغامراته كما انها وبتوجيه مباشر من خبير جاء خصيصا من(باريس) تعّد برامج مسابقات لحسناوات قد يحالفهن الحظ ليصبحن من المتجولات ليلا في حديقة(الكلي المعرفة), وكانت الفكرة العبقرية التي جاء بها الخبير القادم من فرنسا هي ألإعلان عن اكتشاف مؤامرة يدبرها أعداء(الكلي المعرفة) لنشر خبرألأخصاء في محطات ألإذاعة وفي المحطات الفضائية ولكن الخبير الذي عرف فيما بعد ان سكان قريتنا والقرى المجاورة لايستمعون الى المحطات ألإذاعية ألأجنبية ولايشاهدون المحطات الفضائية لأنهم بكل بساطة لايمتلكون أجهزة راديو يمكن

ان تتلقى ارسال تلك المحطات ولا أجهزة استقبال للتلفزيون, لهذا قرر ان يوصل المعلومات بواسطة منشورات توزع في المقاهي ,هذا الأمر هو الذي جعل رواد مقهى (ألشابندر) يناقشون الموضوع بجدية.

قال الدكتور، الناقد ألأدبي الذي يكتب مقالا اسبوعيا مدفوع الأجر بالكامل وعلى أساس عدد الكلمات في السطر الواحد

- لاعلاقة للخبر بالقضية البنيوية و ....

قاطعه سكرتير تحرير المجلة ألأدبية التي لم يقرأ منها(الكلي المعرفة) سطرا واحدا رغم انها صدرت بتوجيه مباشر منه

: كيف هذا يادكتور ، انتبه الى كلامك فانت تنفي علاقة الموضوع بأبنائه الذين يتناسلون بسبب الذكورة المتميزه ، البنيوية هي عكس ألأبوية التي كانت سائدة كسياسة في مجتمع الزراعة ألأول أما البنيوية فهي سياسة ألأبناء ,اي سياسة ألإنجاب وهذا متعلق اصلا(به) ومن هنا تتوالى المكائد لحرمان المجتمع الجديد من أسس رصينة للتوسع وللديمومة.

أسقط بيد الدكتور الناقد ألأدبي فقد أفحم على نحو لم يترك له مجالا للأستمرار بالحديث.

قالت المرأة : يارجل ، (الكلي المعرفة) لن يعود والسر الذي كان يحرص عليه قد كشف ، ضع قدمك على عتبة الباب وستتراجع الصحراء ، نحن بحاجة الى الطحين وإلا لن تذوق الخبز

قال الرجل : ولكن كيف عرفت ذلك ؟

قالت المرأة : ان تعرف ، ليس هذا هو المهم ولكن ان تتحدث بما تعرفه , تلك هي المخاطرة ،وأنا كإمرأة أقدر تماما المشاكل النفسية لأي خصي في العالم لاسيما بعد أن اصبح لدى الجميع اجهزة استقبال للمحطات الفضائية التي تكشف أدق التفاصيل في بيوت الحاكمين ، لقد استمتعت حقا بقضية (مونيكا) ولكن الذي أدهشني هو كمية البراءة في عيون صديقها وهو يقسم إنه لم يفعل معها شيئا , هل تعتقد إن الغجرية قد أخصته هو ألآخر ؟

قال الرجل وقد بدا متضايقا : لا أدري ، سأذهب الى السوق ولكن اذا جاء الكلب لاتدخليه! حسنا انه نجس من الوجهة الشرعية

كان السوق خاليا من المشترين ، والباعة مسترخون على الرصيف الطويل الذي القت عليه العاصفة ليلة امس بانواع الحجارة واوراق الشجر وطبقة خفيفة من الغرين الأحمر جاءت مع رذاذ الماء الذي رفعته من النهر، وعلى الرغم من ان العديد لم يعودوا الى منازلهم منذ العام الماضي وان أعدادا أكبر قد ماتوا في غرف ضيقة ومظلمة وبأيدي وكلاء غير شرعيين لآلهة الموت الرسمية فانه لازال هناك مايكفي من الوقت للأسترخاء والكسل.

كان الباعة يضعون تحتهم حصرانا من النايلون ذات الوان متباينه ولكنها كانت على العموم داكنة، وحيث ان لا مشترين الان فانهم يناقشون الشؤون السياسية ويتبادلون نكاتا لم تكن تبتعد عن حكايات (الكلي المعرفة) وعلى وجه الخصوص البيانات التي كانت تصاغ بلهجة قطعية صارمة ومهددة عن(وسائل منع الحمل).

كانوا سابقا يناقشون السياسة الدولية التي يعرفون تفاصيلها ، وعن الطرق البربرية لإبادة الهنود الحمر في الجنوب الأمريكي ويعيدون باستمرار الموقف الهزلي الذي افتعله السيد خروشوف في الأمم المتحدة ويضربون بأحذيتهم على الحواجز الخشبية لمحلاتهم التي تكاد تفرغ من البضاعة مستبدلين ضجيج المشترين بصوت الطرق المستمر، فقد كانت عيون (الكلي المعرفة) في كل مكان ، وكان ينتابهم شك ممض كلما رأو غريبا يدخل الى السوق من المداخل الفرعية الضيقة فيصمتون متطلعين ببلاهة الى بعضهم البعض.

ولكن ربما يجد لهم العذر فالوهم لابد من فضحه في التقارير اليومية المرفوعة وفق هيكلية التسلسل ألإداري , وهذا الوهم هو ((الشك كما يقول (الطوسي)))وهو حقيقي لأنه مزروع في الذاكرة بوساطة حالات قد تحقق حصولها بدلالة آثارها , فقد اختفى الحلاق لأنه اجتهد في طرح سؤال عن طبيعة عيني (الكلي المعرفة) على أحد زبائنه من طلاب كلية العلوم , كان الحلاق الذي جاء من الجنوب لايحمل معه غير مقص صغير أسود اللون ومشط من البلاستك لونه احمر وكان يرتدي (دشداشة) زرقاء وسترة كان يلبسها على مدار السنة والتي

جاءت على متن باخرة الى الميناء الوحيد في الجنوب والتي ربما كانت تعود لشاب انيق في امريكا اشتراها بمناسبة أعياد الكرسمس ورأس السنة ، وقد توصل الحلاق الى هذا الاستنتاج من حجمها وطريقة تصميمها ولأنه كان هو صغير الحجم ولا يمتلك اية كمية فائضة من الشحوم بسبب مقادير الطعام الذي يتناوله فقد كانت السترة على مقاسه بالضبط .

في أول مجيئه الى سوق الفلاحين الوافدين من الغرب ومن الجنوب الغربي ، كان الحلاق يجلس زبونه على صفيحة فارغة ويلف رقبته بقطعة قماش كانت في يوم ما بيضاء وكان معروفا بانه قليل الكلام وبالطبع تعرض لأن يشك به الجميع ولكن بعد ان استأجر دكانا صغيرا واشترى كرسيا متحركا ومرآة كبيرة بدأ يكتسب ثقة الناس وتنوع زبائنه بحيث دخل دكانه بعضا من طلبة الجامعة ممن يسكنون في غرف في الطابق العلوي لبيوت يسكن فيها خليط من العوائل والعزاب.

كما اختفى الحمّال الوحيد الذي كان يعمل في السوق سبعة أيام في ألاسبوع , لأنه شك في قدرة (الكلي المعرفة) على الإنجاب , وحين سأله مراقب البلدية كيف عرف ذلك.

قال بصراحة اقرب(لحد ما) الى الطيش أو الحماقة(على وجه التحديد) لمراهق اكتشف انه يعبر الى مداخل رجولته

:-الكل يعرف ان الغجرية قد أخصته بعد ان دفع لها الشيخ حمدان الثمن،

لم يجد الطحين الذي طلبته زوجته وبهذا فان حالة من التوتر ستسود البيت عند عودته ، كان الطحين قد تكرراختفاؤه على نحو بالغ الغرابة ، في البداية قالوا ان (ألكلي المعرفة) قد استولى عليه لوليمة عرس ابنته ولكن العرس انتهى وانجبت ابنته ثلاثة أحفاد دفعة واحدة وقد فرح هو واجلس زوجها الى جانبه معلنا انه قد اثبت انه من العائلة ويتمتع بكل المواصفات الصلبة التي تنحصر في الجينات الوراثية لأجداده ، رغم انه في الحقيقة لم يعرف احد أي من اجداده وحتى أبوه كان ظلا باهتا لحسه الكلب في احدى ليالي الشتاء القاسية فأصابه الصرع , أعني

الكلب , يقول (أبو الفحم عطوان) انه شاهد رجال (الكلي المعرفة) يشحنون الطحين الى (ليبيا) فالعقيد كان يريد ان يوزع الخبز على صحراء المغرب كلها على الرغم ان هذا الخبر نفته (جبهة البوليساريو) واعلنت انه عار من الصحة.

قالت المرأة : سأطهو الرز اليوم فأنا لااعرف ان اعمل الخبز من الرز , كانت امي تفعل ذلك احيانا ولكن بعد طحنه ولكن أبي كان يرفض أن يتناول خبز الرز ذاك ولكنه لم يكن ليغضب ، كان دائما بريئا وهو ينظر اليها بعينية اللتين كانتا تترقرقان بكمية من الدمع ألأزلي الذي يسكنهما لأن عليه ان يظل مستيقظا طوال الليل بحكم عمله كحارس ليلي في الجانب الغربي من النهر.

قال الرجل : لابأس , ولكن ما افكر به هو إن عليّ الذهاب غدا الى المدرسة ، سابقا كنت لا أذهب في مثل هذا اليوم ، وحتى ان ذهبت فاننا نقضي الوقت بالحديث ونستمع الى نكات المدرس المصري التي لاتنتهي تماما كخسائرنا في حروب تبدأ ليلا وتنتهي عند شروق الشمس حتى انها اصبحت مألوفة الى الحد الذي لا تستدعي اية تساؤلات واصبحت التنظيرات بشأنها عديمة القيمة لأنها مكتوبة بمزاجية لعينة وببراعة الرجل الذي كان يمشي على الحبل في السيرك اليوغسلافي الذي زار القرية قبل خمس سنوات ومنحه(الكلي المعرفة) وساما عسكريا ، كان المدرس المصري يتواصل مع الجميع ولم يكن يبدو عليه انه عدواني برغم ان الانطباع الذي يتولد عند مشاهدة نظراته الدائرية غير المستقرة يشي بانه يبحث عن شييء ما ربما تمت توصيته بالبحث عنه ، وما يقلقه هو انه يعتقد انه قد أرسل الى المكان ا لخطأ.

قالت المرأة : مساء كنا نتسلى بالألعاب النارية , كان عيد ميلاده مظاهر فرح مدعومة بكل مظاهر القوة المسندة بالنفاق وبأحلام ألانتهازيين بكتابة تقارير اكثر خطورة عن أحلام لم تولد بعد ولكنها تترائى لمحات في عيون توقفت سهوا عن أن تطرف.

قال الرجل : هذا العام كل شيء فيه هادئ , ولكن هل تعتقدين ان عيد ميلاده فعلا هو يوم غد الذي يأتي عادة في مثل هذا الوقت من كل عام حيث تتفتح كل زهور ((الشقّيق)) القاني الحمرة وزهور (البابونك)البيضاء بقلبها ألأصفر البريء؟

قالت ألمرأة : لا , فهو لم يفكر أن يهدي اي من نسائة باقة ورد ليلة زفافها !أو ان يكف عن اعتبارهن كائنات صغيرة حمقاء عادة ، افضل طريقة (لضبطهن) هو ألإهمال أو ضربهن على مؤخراتهن بعصا ما تزال طرية شريطة ان تكون من شجرة سفرجل وان تكون ناعمة تحدث أزيزا خاطفا وهي تهبط على اللحم الطري

قال الرجل : بحسب تحليلات الشيوعي الوحيد في مدرستنا المتبقي من الجبهة الوطنية , فان من المستحيل ان يكون مولده في الربيع , فالروح العدوانية المستبيحة تكاد تنطبق مواصفاتها على يوم من آب في الشمال الأوسط المفتوح على الصحراء القاسية.

قالت المرأة : لن تجد من يعرف عنه كل شيئ لأن عمق التزوير قد طال امتداد التاريخ.

قالت البدوية التي تشبه الرجال القادمين من عمق الصحراء وقد يبست وجوههم من لهيب الحر والعطش والتي تحمل طبعا يميل للنكد.

: سأحكي

كانت البدوية العجوز هي التي ولدته فقد كانت الوحيدة في القرية التي يستدعيها الرجال لتوليد نسائهم وقد اعطاها (الكلي المعرفة) بيتا ولكنه رفض أن يعطي ابنها اربع نجوم واصر على انه لايستحق غير نجمة يتيمه لن تلد فهي ايضا عقيمة وقال لها:

: ابنك لم يكمل المتوسطة

ولكنها لم تقتنع وكظمت في نفسها غيضا عليه

قالت : سأحكي : لقد ولد ظهرا وكان الصيف شديد الوطأة والنهر ينساب الماء فيه كخيط متصل وفي دارهم لم يكونوا يملكون حطبا لغلي الماء ، حين اقبلت على الدار سمعت بكاء شديدا صاخبا وقد حسبت ان احد الصبية الذين اهملتهم الأمهات يبكي ولكن تبين انه كان هو الذي يبكي في بطن امه المتورمة ، طلبت من خالته ان تذهب الى النهر وان تحفر في الطين ليتجمع الماء ولكنها قبل ان تعود خرج

بعينين يحملان بغضا شديدا وله شوارب سوداء وفي يده قطعة لحم شدها وهو يندفع خارجا

قال خاله : هذا الطفل سيأكل مال اليتامى

قالت امه : فعلا لأن الموتى لاحقوق لهم

تابعت البدوية العجوز : كان في الثانية حينما قلب (الطشت) الذي تغتسل فيه امه ثلاث مرات في السنة وتغسل فيه ايضا ملابس العائلة مرتين في الشهر ، قلبه على ابن الجيران الذي كانت أمه تبحث عنه بجنون , كان جالسا على(الطشت) يتشاغل بالنظر الى عصفور يتفلى على الحائط الطيني , وحين سألته المرأة

.قال لها : باح ...(عواجة) باح

قال مدرس التاريخ : يجب النظر دائما الى بطن التاريخ كما يراه ابن خلدون , والذي هو (نظر وتحقيق , وتحليل عميق للكائنات). ومن هنا فلابد من دراسة ماتقوله (القابلة) ومقارنته مع الوقائع الموضوعية.

كان مدرس التاريخ يعاني من مشكلة مزمنة تتلخص في مطالبته المستمرة بأن ينقل من القرية الى بلدته وهذا ماكان يعارضه المدير العام ليس بسبب الحاجة الى خدمات مدرس التاريخ , لأن المدرسة فيها ثلاثة مدرسين لهذه المادة وهي لاتحتوي إ

لا على (فصل) واحد و كل الطلبة من الصف الثاني متوسط فما فوق قد تم ارسالهم الى كليتي الشرطة والكلية العسكرية ليصبحوا مسؤولين عن ضبط الأمن , ان موقف المدير العام مبني على قضية نفسية تتعلق بسلوك شائع في القرية وهي (لاتنفذ مايطلبه الآخرون بل نفذ ما لايطلبوه) لأن في هذا تشخيص للعقلية ألإدارية الحازمة ولجعل الآخرين يشعرون بأستمرار بحاجتهم اليك.

قال الرجل : مدرس التاريخ مجنون أو على ألأقل أحمق

قال مدرس التاريخ : الجنون حالة وراثية بين النهر والصحراء اما الحماقة فهي صفة شخصية تنشأ بسبب الجهل , الليلة سأنهي كل شيئ

:-سيادة المحافظ , انا مدرس التاريخ الفائض عن الملاك في مدرسة القرية والذي قدمت خمسة وعشرين طلبا للنقل ولكن زوج اختك المدير العام رفضها كلها , حسنا أنت تعرفني إذا , من أين أاتكلم ؟!, آه ... من نادي المعلمين , نعم الخربة المحاذية للنهر والتي يعرش في زواياها العوسج , لقد شربت نصف قنينة من عرق زحلاوي مغشوش لأحدثك , لاياسيدي انا لست مجنونا بعد , لماذا اذا أطلبك في تمام الساعة الحادية عشرة ليلا ؟ نعم لأن لدي ما أريد قوله لك , انت ياسيدي رجل أحمق , اسمعني ياسيدي فأن ما أقوله غاية في ألأهمية، أنت أمرت بتغيير أسماء الشوارع في القرية ، وبدلا من كلكامش اخترت اسم الراقصة العباسية وبدلا من الفراهيدي اخترت ألأسم الثالث لخال (الكلي المعرفة) كما أبدلت اسم حي العرب الغربي باسم حي الطرب لأن المغنية كانت تغمز لك حينما سكرت في الليلة التي سبقت إعدام ضابط الشرطة الذي قبض على ابنك في موضوع سرقة دراجة زميله في المدرسة ، واتهمته بانه يتصل بقوى اجنبية خارج الحدود وان ابنك كان يحاول تسليم أداة الجرم.

ظل مدرس التاريخ إسبوعين في البناية الغربية تحت التأديب ، وكان يتناول رغيف الخبز اليومي مع جرذان شديدة السمنة ووقحة ، قال له رجل بدا متعفنا من الوساخة ان هذه الجرذان تتعامل مباشرة مع الحكومة وان عليه أن يتعلم كيفية التعامل معها.

الفصل الثالث

عاد الرجل إلى بيته فاكتشف إن الصحراء قد انسحبت , ليس من باب البيت فحسب ، وإنما من الحدود الترابية التي تشكل هضبة منخفضة عند الشطآن الهشة للنهر الذي بدا واضحا انه يخاصم القرية , وبدلا من الرمال الفاقعة التي كانت تدفع بالديدان (الفارسية) الكبيرة كان هناك ملح ناعم كأنه عروق متعرجة في قشرة الأرض ورطوبة بالغة الغرابة تنز حينما يخطو عليها.

قالت المرأة : لقد عبر الكلب الى الجهة الشرقية , خاض في الماء ولم يسبح لأن النهر كان وشلا، أما الغزالة فقد اختفت في القلعة لأن الغرف المبنية من الجص تكون عادة باردة

قال الرجل : يصرّ مدرس التاريخ, الذي نقله المحافظ أمس من القرية الى الوسط الذي يستقر على ذات النهر بعد أن فقد من وزنه النصف بسبب ماتأكله الجرذان السمينه من رغيفه اليومي ، إن قريتنا كان يحكمها الفرس وان القلعة بناها سابور بن أردشير ثم فتحها الروم , ولهذا تتباين عيون ابناء القرية وتختلف نساؤها فمن كانت بيضاء بعيون واسعة فأن اصلها رومي ومن كانت اميل للسمرة بعيون نرجسية مترددة فأن اصلها فارسي.

قالت المرأة : عيناي سوداوان

قال الرجل : انت اذا مهاجرة!

قالت البدوية العجوز التي أولدت أم (الكلي المعرفة)

:-ولكني لم اكمل حكايتي بعد ،حين بدأ يكبر كانت أمه تريده ان يتكسب من صيد العقارب ولاسيما العقارب السوداء لأنها تمتلك كمية كبيرة من السم ولكونها تمشي فاتحة ارجلها كعذارى نذور العرس الإلهي ، فقد أخبرها غجري يمت بصلة علاقة مشبوهة مع أخيها ذي الرأس المربعة والذي يملك لسانا شديد الوساخة حتى ان إمام جامع القرية طلب منه عند الوضوء ان يغسله ثلاثين مرة ، والذي يحاول ان يتشبه بأمبراطور روماني مجنون امتلأت مشاعره بعاطفة صارمة غاية بالغباء تدفعه الى التوسع الى الخارج عن طريق عمليات استيلاء أوتسليب قانونية ابعد قليلا من عمليات الأستيلاء الشائعة ولكنها أكثر قسوة.

في الزنزانة التي كان يشغلها يوما ما طبيب نفسي اختفى فجأة و لم يعثر عليه أحد ، وجد رجل ألأمن المكلف بتنظيف الزنزانه بعد كل عملية إخلاء ،ورقة مطوية سلمها الى الضابط المناوب الذي قرأ فيها أمام اسمه ((انه ذات متورمه ,على نحو غريب وغير مبرر، بألأنانية المفرطة والرغبة بأيذاء الآخرين وانها ،أي هذه الذات تتسم بالوقاحة وتعمد الى الهجوم , وتجد ان هذا هو الوسط الملائم كي تستشعر انها تعيش))

قال الغجري انه سيشتري السم، وانه سيدفع لها تمرا وملابس جديدة للعيد , وافق (هو)وفكر ان يأتي بالنخل من جنوب النهر وينتقم من الغجري ولكن النخل لم يقبل ان يحمل التمر وظن(هو) انهم خدعوه بأعطائه نخلا عقيما ولهذا قتل ثلاثين رجلا وست نساء ممن تولوا عملية ارسال النخيل .(لقد تم توضيح المبررات التي احتجت بها أناث النخيل بعدم رغبتهن بالحمل)

كان المذياع الصغير يذيع خبر استبدال القائد العسكري للجيوش العاملة على الأرض كلها و في البحار ، والتي كانت قد دخلت القرية بمئات الدبابات،بضابط من لبنان، استطاع بآلاف الحيل التي تعلمها وهو في المدرسة اليسوعية في الجبل ان يسرق عشر نجمات وان يعطي وجهه بشاشة مشكوك فيها ولكنها مخاتلة ليقنع الضابط السابق بترك الموقع ليدخل هو الى القرية بعد ان سمع ان نوعية ألاعناب التي تنتجها والتي تصلح لصنع نبيذ افضل من الذي يتم انتاجه حاليا في قريته التي انقطعت عن العالم بسبب الحرب والتي يتعذر عليها الحصول على الأسمدة النايتروجينية من مصانع الخليج العربي.

فكر أهالي القرية ان الضابط الجديد لابد وان يكون أطول من الضابط السابق الذي ربما يصل طوله الى المترين ، كما انه لابد وأن يكون أكثر امتلاء وان رأسه قد يزن اكثر من خمسين كيلو تماما كالكبش الذي جاء به (الكلي المعرفة) يوم تم(ختان) ابنه البكر الذي بكى وهو يأكل عصفورا نيئا ،كان العصفور بثلاث أرجل واحدى عينيه مفقوءة وكان يزقزق في فم الأبن البكر وهو يقطعه بأسنان دقيقة مدببة كمسامير اليهود التي ثبتوا بها السيد المسيح.

في المقهى الوحيد الذي ظل فاتحا ، بعد دخول الدبابات والطائرات المروحية السوداء ،كان جهاز التلفاز الملون الكبير الموضوع على منضدة عالية تسمح للجميع بالمشاهدة لاسيما الذين يجلسون في ألأماكن البعيدة ،وهذا الجهاز يظل واحدا من ألآثار التي تشهد ان قريتنا كان لها في يوم ما عزا وربما سيكون بعد عقود من الزمن الدليل التاريخي الذي سيستدل به على ايام المجد التي تمتعت بها قريتنا ، في هذا المقهى ، الذي يفصله عن النهر شارع اسفلتي بأرصفة حجارتها صخرية بيضاء، والذي كان في البداية طريقا ترابيا ضيقا دخلت منه الجيوش الرومانية وهي تهاجم القلعة التي بناها سابور الفارسي كما ان(ابن المعتم) أطل منه على النهر وهو يقود جيوش المسلمين ليدخل القلعة مساء ولكن (الكلي

المعرفة) هو الذي جلب الأسفلت من الشمال والحجر الجبلي والحصى من الصحراء التي تقف خلف القرية ، ليجعل منه الشارع الذي يتبادل به العشاق من سكان القرية كلمات الحب وآهات العشق ولتنشأ فيه العديد من العلاقات المحرمة التي لم تكن القرية تعرفها من قبل، وحينما دخل الضابط الأمريكي أخيرا ، صرح انه سيظل يبحث عن الأسلحة المهربة وعن الأولاد السيئين .وهنا ايضا تم تنفيذ الحكم الصادر بموجب قانون(الحملة ألأيمانية) بفتاة شقراء طويلة بعينين كستنائيتين وشعر يتهدل على كتفيها.

عند بدء تحرك المساء ليدخل القرية من الجهة الغربية للنهر وهبوط قرص الشمس تدريجيا خلف الكثبان الرملية كا ن شعرها يتحول الى شلال ناري بالغ الغرابة وبالغ الروعة ايضا وهذا هو ما جعل ألسيد (المحافظ) يترجل من سيارته ليتعرف عليها ، كانت تجلس وحيدة , تضع قدميها في الماء وعلى الطاولة أمامها كوب قهوة مركزة ، أكدت على النادل في الكازينو المحاذي للنهر ، أن يتأكد من غليها على نحو يعطيها طعما لاذعا , وكان بيدها سيكارة أجنبية كانت تدخنها على نحو يوحي بانها مسرورة بجلستها تلك.

كانت الفتاة موظفة في وزارة الخارجية قدمت الى قريتنا لزيارة اختها الطبيبة في المستشفى الرئيس في القرية ولتعينها في فترة (النفا س) بعد ان انجبت طفلا بوجه مكتنز وعينين خضر بلون الفستق الايراني.

لاحقها السيد (المحافظ) وعلى نحو متواصل وبالحاح ، كانت تحركه ثلاثة شياطين ، ولابد من القول هنا ولو من باب الحقيقة العلمية إن الشياطين هذه تختلف كليا عن الشياطين التي يتم وضعها على بعض الصفحات الملونة أو التي تتحرك في أفلام الكارتون المعدة للأطفال ، فهي صغيرة الحجم الى الحد الذي قد نحتاج فيه الى مجهر لرؤيتها كما إنها كانت لاتمتلك قرونا كالتي عند الثيران في حديقة القصر المطل على النهر أو كالقرون التي يمتلكها (الزلنطح) المرمي في الشطآن الطينية عند النهر.

كانت شياطين هادئة الطبع ولكنها بالغة الخبث تتحرك وفق منهج ثابت من دون أن تتأثر باية منطلقات عاطفية أو فكرية مهما كانت موضوعية أو ملائمة لمعطيات الحداثة

في مكتبه ،حينما صرح لها السيد(ألمحافظ) برغبته في أن يذهبا معا الى الفندق الذي يقع على الطريق الدولي خارج المدينة ، كانت الشياطين الثلاثة تعمل متزامنة ، كان الأول قد استقر في رأسه وكان الثاني قد فضل ان يعمل في المنطقة الوسطى لأنه كان يرغب أن يتجول بحرية أكبر ، أما الثالث فقد كان الأكثر خبثا وفضل ان يعمل في المنطقة السفلى , بين فخذية , ولابد من الإشارة هنا الى انه من المتعذر تسمية منطقة عمله صراحة لأن مثل هذا التحديد اللفظي قد يتسبب في مشاكل أخلاقية في مجتمع محافظ ومتماسك أخلاقيا،

حينها لم تجد الفتاة بدّا من شتم السيد (المحافظ) , قالت كلاما كثيرا ولكنه لم ينفعل أو يبدو عليه الغضب وكأنه اعتاد مثل هذه المواقف، ولكن سحنته اصفرت أولا ثم بدت شديدة الزرقة وقام من مقعده ليصفعها بقوة ويأمر الشرطي الذي على الباب والساعي الذي يخدم في المكتب والسكرتير الذي يجلس في الغرفة ، أن يأخذوها الى غرفة الموقف المؤقت تمهيدا لأرسالها الى دائرة الأمن مصحوبة بكتاب يشهد عليه ثلاثتهم أنها راودت(المحافظ) ليسهل لها أمر نقلها الى القرية لتكون قريبة من أختها ،, هنا قد يتساء ل البعض ولكن ماذا قالت ؟

قالت الفتاة : سيدي المحافظ انت رجل عديم المروءة وأنا أعجب إذا ماعلمت ان زوجتك لم تخنك حتى ألآن.

في هذا المقهى وفي ذات اليوم كان جهاز التلفاز يعرض مشاهد من تسلم الضابط الجديد مهامه كقائد لقوات الأرض والجو والبحار الزرقاء التي تبدو على الخارطة المصبوغة باللون الأصفر ممتدة الى ما لانهاية ، فوجئ رواد المقهى واسقط بيدهم وانتابتهم حيرة مقلقة ، لقد كان الضابط الذي تربى في الجبل والذي درس في المدرسة اليسوعية والذي يحمل الآن عشر نجمات تلتمع ببريق أخاذ ، كان مجرد رجل صغير الحجم دقيق الملامح بعينين حلوتين , حتى ان احدى الفتيات التي كانت ممدة على سريرها تقرأ قصة (أبو زيد الهلالي عاشقا)

أصدرت آهة طويلة شعرت معها ان وجنتيها قد لامسهما هواء حاروهي ترفع نظرها الى جهاز التلفاز .

كان رواد المقهى الذين اسقط بيدهم قد توقفوا عن رمي النرد في محيط طاولة الزهر وحتى ان بعضهم قد كف عن تناول الشاي الذي كان يرشفه ببطئ متلذذا بطعم (ألهيل) ورائحته النفاذة.

:-ليس معقولا ماناراه

قال رجل أشيب الشعر احدى عينيه فيها حول ظاهر :-

حين كان(ابو زيد الهلالي) يعبر الصحراء الى تونس كان راكبا حصانا، لصهيلة رهبة ، أما هو فقد كان عظيم البنيان طويل القامة في عينية نار تلتهب باستمرار، شاهرا في يده سيفا يزن ثقل رجلين، ويقال انه كتب بيده (التغريبة) وهي اليد نفسها التي قطع بها الف رأس من أهالي تونس ليحتل أرضهم كما تزوج الف امرأة من نساء قادة البلاد ومثلهن من الفتيات اللواتي خالطت دماؤهن الزنجية الدماء العربية الحارة ، أين هذا من الضابط ألأمريكي الجديد الذي لايختلف عن اي بائع خضار في السوق ،إلا بنجوم عشر.

قال الرجل الذي في احدى عينيه حول ظاهر

:-لقد سألت ابني الذي كان في طريقه ان يصبح ضابطا , ماذا تعني هذه النجوم ؟ قال أن كل اثنتين تعنيان صنفا من الجيوش التي يحكمها ، اثنتان للأرض واثنتان للجو واثنتان للبحار واثنتان لتوزيع الطعام ، لقد رأيتم ما يأكلونه ! كان الطعام دوما حارا وطازجا .

قال رجل يجلس القرفصاء وهو يحدق بصورة الضابط على شاشة التلفاز

:-ولكن بقيت اثنتان ؟

قال الرجل الذي في عينيه حول ظاهر

حسنا انهما احتياط فقد يتم انشاء صنف جديد :

قال النادل الذي كان جنديا : انها للصواريخ

قالت المرأة : وألان لن يكون على الفطور بيضا

قال الرجل : لماذا ؟ هل بدأت دجاجاتك تتعاطى حبوب منع الحمل ؟

قالت المرأة : ليس الموضوع مزاحا , لقد اكتشفت امس ان الدجاجات الثلاث قد توفين , كنت مضطرة الى سماع ثرثرة جارتنا التي احدى عينيها من زجاج والثانية اجروا لها في المستشفى العملية مرتين ليبدلوا لونها البني المخاتل الى الأزرق اللأزوردي بتدخل أخيها عضو(قيادة الفرقة) والعامل في المستشفى، كاتب استعلامات بعد ان كان ممرضا.

كانت الجارة تحكي لي بالتفصيل ما تبثه القناة الفضائية العاملة في دولة خليجية، ولأن ماتبثه تفاصيل عجائبية عما يدور في البيوت بعد مقايضة (الكلي المعرفة) عمله بالتفرغ لتعداد النمل الأبيض وفرز الذكور عن ألإناث، لقد كانت جارتي فرحة أمس ، لأن القناة الفضائية بثت خبرا عاجلا عن موعد ولادة ابنتها المتزوجة في (العاصمة) من بائع أدوات احتياطية للسيارات ألأمريكية المتوقع وصولها بعد سنتين ، العجيب ان ابنتها لم يثبت حملها بعد.

تابعت المرأة

كنت أود ان اعطيها بعض الطعام فوجدتها ميتة , لم يكن هناك من امر غريب -: يدعوها لأن تموت على هذا النحو الجماعي غير الحب

قال الرجل:- الحب ؟

قالت المرأة : نعم ، لقد هرب الديك ذو العرف الأحمر والذي كانت الدجاجات الثلاث يتمسحن به وهو يختال في القفص ، كن راضيات أن يكون لهن ثلاثتهن وبالطبع هذا ينسجم والتقاليد في القرية ولكن قريتنا لم تشهد طوال تاريخها منذ سابور الفارسي وحتى النساطرة المحترمين ومن ثم تاريخها الحديث ، اية قصة حب مشهورة ، فالناس هنا مشغولون بأمور اخرى اكثر اهمية ، كالتهريب أو مشاركة الصناعيين و التجار في (العاصمة) دون تقديم اية مساهمة ولو رمزية في رأس المال او أي جهد في عمليات التسويق مثلا.

لقد كان رجال قريتنا على الدوام أناسا عمليين ومسألة الحب لديهم ، والتي هي في جوهرها ليست اكثر من علاقة بين ذكر وانثى ، تظل دائما مسألة عارضة لا تزيد عن خمس دقائق الا اذا كان الموضوع يتعلق بجلسة فوق العادة في أحد بيوت الغجر حيث تمارس محرمات شتى ولهذا السبب فهي تأخذ وقتا اطولا بالضرورة . ثم ان الحب لعبة الكسالى ولكن الحرب هي لعبة الرجال الذين يسهرون حتى الفجر في بيوت الغجر.

لقد هرب الديك , كما يبدو ، لأنه فضل ان يبحث عن طعام افضل في الجانب ألآخر حيث يرمي الجنود ما يزيد عن حاجتهم من الطعام الذي يأتيهم بالطائرات , اما الدجاجات فهو بالتأكيد سيجد بديلا عنهن، ولكن دجاجاتي المسكينات لن يجدن ديكا في الجوار ولهذا فضلن الموت.

في الليل ، وحين يهدأ كل شيء ، يرتفع نقيق الضفادع وصوت الرصاص، وهذان الصوتان المتلازمان يصمتان فقط عندما تكون الشمس قد تجاوزت الهضبة الشرقية.

تبدأ الضفادع اولا بصوت اوبرالي واطي الطبقة والى حد ما ناعم ، ثم تنطلق رصاصة كأنها الأنذار ببدء العمل ، صوت يئز مخلفا شريطا رفيعا واطئا ، يصمت الجميع ، حتى الأطفال يكفون عن البكاء المشاكس ، فيما ترتفع آذان الكلاب بترقب حذر وتتوقف نهائيا عن عادة الشمّ وهي تدور، وتشخص عيون النساء غائمة بغضب مكبوت , شيخ الجامع الوحيد في القرية ، وحده هو الذي يقف في وسط صالة استقبال الضيوف الفارهة في بيته الكبير الذي بناه بمساعدة شخصية بلغت بضعة آلاف من الدنانير من (الكلي المعرفة) , بالمناسبة فانه في تلك ألأيام السعيدة لقريتنا فان الدينار الواحد يساوي اكثر من ثلاثة دولارات, وألاصرار هنا على ذكر هذه المعلومة يعود في حقيقة الأمر الى كون الحسابات كلها يجري الان معادلتها بالدولار الأمريكي.

تساء ل البعض عن السر الذي وراء قيام (الكلي المعرفة) بدفع كل هذه المبالغ للشيخ علما بانه لم يدخل الجامع ، إلا حينما كان بعد صبيا , حيث كان يتسلق السور الطيني ليلا ليسرق بيض الحمام الذي يحتمي بالسقف العالي للقبة, ولكن الشرطي المتقاعد والذي يواظب على ارتياد المقهى الواقع على ناصية الشارع

الذي يمتد على جانبيه سوق القرية ، هذا الشرطي هو الذي همس موشوشا صاحب المقهى ان شيخ الجامع قد سافر الى البصرة ليقنع أحد الوجهاء في المدينة ممن يحتفظون بشجرة عائلية معتمدة من الوالي التركي ومصدقة من أحد المراجع الكباربأنها صحيحة في تسلسلها حتى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) عن الطريق الشرعي الوحيد وهو أبنته فاطمة الزهراء (عليها السلام) , وان النتيجة كانت الشجرة المعلقة بباب الجامع.

شيخ الجامع يترقب بدء عمليات التحرش بالقوات الأمريكية التي لايرغب ان يسميها (علنا) عمليات المقاومة لئلا يتهم بالأرهاب ، وهو يتلوقصار السور التي يحفظها ويدعوا الله ان يكون عادلا وينفذ وعده للمؤمنين ولكنه يستدرك انه يأمل برحمته قبل كل شيء ، لأنه يعرف جيدا، ان أيا من أبناء القرية لم يكن يوما ما مؤمنا وعلى وجه الخصوص الجنود الذين تم تسريحهم من الجيش بعد الغائه والذين كانوا مصدر ازعاج له ولمرتادي الجامع الوحيد في القرية

تندفع زخات متقطعة من الرصاص ثم تدوي قذائف متتالية من مدافع صغيرة أو من قذائف مقاومة للدبابات لتتوالى بعد ذلك اصوات مختلفة لسيارات عسكرية ودبابات سريعة في الشوارع التي تم تبليطها بعد اكثر من ثلاثة آلاف سنه من ألأتربة التي كانت تقتحم البيوت عبر الشبابيك الخشبية ذات الشقوق بسبب دودة (ألأرضة) التي تتكاثر على نحو اقرب للمعجزة فور تمكنها من ان تجد أول سنتمتر لها في الدار.

ماعاد الرجال في القرية يذهبون الى بيوت الغجر لأن الليل ماعاد هو الاخر آمنا ، وينطلق الرصاص على كل شبح يتحرك في الظلام ، كما ان الغجر هجروا مساكنهم بأتجاه الشمال ألأكثر امنا والذي تتوافر فيه ألآن فرص كبيرة للعمل بعد ان بدأت شركات ألاعمار تدفع اجورا عالية وبالدولار ، وبدأت تتكون طبقة جديدة من التجار ورجال الأعمال الذين يتحتم عليهم ان يجدوا بعض الراحة لتجديد نشاطهم ليوم آخر من العمل المرهق.

بالأمس وقبيل سويعات الفجر انطلق رصاص كثيف من جهة القصر الذي يحتل الواجهة الشرقية للنهر ويقع مباشره تحت الهضبة وفي ذات المكان الذي انشئ

اولا كشارع ترفيهي للقرية ثم اقتطعه (الكلي المعرفة) ومنع الذهاب اليه أو المرور فوق الهضبة المشرفة على (بلكوناته) الواسعة والمحاطة بأسيجية مزخرفة من النحاس ألأصفر المحمر والذي يعكس اشعة الشمس ببريق متوهج، كان شبحا ضخما يسد الشارع يركض خارجا من القصر ، في الصباح وحين بدأ الناس يفتحون ابوابهم بحذر وخوف، وحين أطل ألأطفال المرعوبين بوجوههم الهلعة وعيونهم المفتوحة كأنها تريد ان تستوعب كل شيئ بلمحة واحدة قبل ان تغلق ألأبواب ثانية , شاهدوا جميعا الناقة الصفراء التي كانت فخر الحيوانات التي جاء بها (الكلي المعرفة) الى القصر ممدة على الأرض وقد اخترقها الرصاص من كل جانب ولكن الغريب الذي لاحظه المتفرجون انها كانت ممددة بأبهة وكأنها اميرة نائمه ، وكانت تضع رأسها على افريز الرصيف الحجري.

كانت الناقة الفاقعة الصفرة هدية من أحد ملوك الجزيرة وقيل انها كانت التوأم ألأصغر لجمل كانت صفرته تتوهج كالذهب الذي جلبته زوجة (الكلي المعرفة) من الهند والذي تزينت به يوم زفاف ابنتها الكبرى التي تصر الآن على ان تتسول مادة يدها(بكاسة) من الذهب ألذي يصدر رنينا يستمر طويلا ما أن يلقي أحدهم بقطعة معدنية فيها ، كانت الناقة تتغذى على الفستق السوداني الذي تبرع الشيخ بشحنة كبيرة منه جاءت على باخرة وقفت في ميناء تركي حيث افرغت حمولتها التي سرعان ما تم نقلها بالشاحنات الى القصر ، وكان الذي تبرع بالشحنة هو نفسه الذي اودع السجن من قبل العسكر في السودان لأنه لم يستلم ثمن شحنة الفستق أو (وهذا من باب ماقد يجوز) انه استلم المبلغ ولكنه لم يظهره في الحسابات الرسمية لأنه ببساطة جرى تحويله الى الحساب السري في سويسرا .

وكالعادة ظهر رأيان ألأول وهو الغالب يقول بجواز أكل لحم الناقة فهي ليست (فطيسة) ويقدم حججا طويلة لتبرير أكل اللحم والثاني يقول بأن أكلها حرام لأنها قتلت ولم يجر ذكر(اسم الجلالة)عند القتل ، وحين احتدم الخلاف وبدا واضحا ان خلافات فقهية ستتحول من النقاش الى استخدام السكاكين ،تقدم القصاب الذي يعمل في السوق والذي يقسم انه لم يشتر يوما اية ذبيحة لأنه يسرق كل ما يبيعه ولهذا فهو يقدم للقرية خدمة كبيرة بتخفيض الأسعار الى النصف مما يباع في القرى المجاورة، قال القصاب بأنه سيحل هذا ألإشكال وذلك لأنه سيأخذ الناقة الى

محل الجزارة التابع له ويقوم بسلخها وتقطيها وعرضها للبيع متحملا كامل المسؤولية الشرعية نظير أن يكون السعر أقل من النصف للتخفيف عن كاهل المواطنين في هذه ألأيام البالغة الصعوبة

حك شيخ الجامع رأسه ليجد ان كان هذا الحل مرض من الناحية الشرعية ورفع عمامته الى اعلى قليلا ثم قال بجواز ذلك شريطة ان (يسمّي) القصاب على الناقة عند التقطيع وان لايزيد السعر عن ربع السعر المماثل للحم الجمال في القرى المجاورة.

!قال الرجل : ألا تعتقدين أنه بات من الضروري أن نفكر جديا بألأطفال ؟

قالت المرأة : في ظل هذه الظروف

قال الرجل : هذه الظروف قد تكون العامل الذي يدفعنا الى حسم التردد

قالت المرأة : ولكنك تعلم أني راجعت الدكتورة في مستشفى القرية وذهبت الى مقام الولي أبو صالح ولكني لم أحصل على نتيجة

قال الرجل : سنذهب معا الى الولي وسنشعل عشر شمعات ونقرأ القرآن قبل الفجر وأعتقد انه لابد وان يساعدنا

قالت المرأة : ولكن يارجل , يبدو انك نسيت ان مقام الولى قد تمت تسويته بالأرض ، وان ساحة مزروعة بشجيرات الصفصاف ، مكانه ألآن

قال الرجل : ستظل روحه في المكان , سأذهب غدا الى الضابط الأمريكي لأخذ ألأذن بالخروج عند الفجر

كان المترجم المرافق للضابط قصير القامة يملك عينين شديدة السواد فيما كان محيطهما أبيضا صاف ، وكان انفه الكبير المنتصب في منتصف الوجه يمثل علامه فارقة شديدة الوضوح وكأنها اعلان (مدفوع ألأجر) فيما ينحدر من فوق أرنبة ألأنف اخدودان عميقان يكادان يلامسان زاويتي الفم الغليظ الشفاه، كان يحرك كفيه باستمرار وهو ينقل للضابط طلبه ويبدو ان الضابط لم يكن مقتنعا وكان في نظراته مايشي بألإستغراب ولكن المترجم أفاض بالشرح عن العادات

والتقاليد وخصوصية الثقافة وأخذ يتكلم بلكنة (ويلزية) واضحة واستنتج إن المترجم ربما مايزال طالبا في احدى جامعات ويلز.

وأخيرا وافق الضابط بعد أن دون عنوانه واشترط ان يكون بصحبته زوجته وان ينقل بسيارة الكتيبة الى الساحة التي سحقت حشائشها السيارات المجنزرة والدبابات الثقيلة وتم اقتلاع أشجار الصفصاف ذات الأغصان المورقة والكثيفة بواسطة معدات متخصصة ثقيلة.

قالت المرأة ذات العين الزجاجية وألأخرى الخضراء انها تأمل ان يسمحا لها بمرافقتهم كي تدعو الولي أن يعيد ابنها الذي لاتعرف عنه شيئا بعد مغادرة (الكلي المعرفة) لقصره واختفاءه وبعد ان عرض التلفاز المحلي دعوته للمقاومة.

لايعرف احد متى جاء الولي الصالح ليسكن بعيدا عن القرية ، في أول ظهوره كان يفترش ألأرض ويلتحف السماء ويأكل من حشائش ألأرض وبعض حيواناتها الصغيرة التي تخرج ليلا متلصلصة فينقض عليها بخفة ملحوظة.

كان نحيفا , فارع الطول ذو لحية صغيرة مدببة ولم يلحظ احد انها نمت اكبر بعد سنة من اول يوم رأوه فيه , كان أسود اللون والقرية لم تشاهد رجلا اسودا في تاريخها ولهذا كان الجميع في منتهى الحذر ولم يحاول أحد ان يختلط به أو أن يسأله عن سبب مجيئه الى القرية ، و كانت التحذيرات للأطفال مشددة بعدم ألأقتراب منه ، لايعرف احد أيضا كم استمر هذا الحال.

عاش في عزلة تامه ، وكانوا يشاهدوه يصلي فجرا بطوله الفارع ترف الجلابيه البيضاء فوق الهضبة كشراع تعبث به رياح رخية ، كان يشرف على القرية ويطيل النظر الى البساتين التي كانت حديثة الأعمار في حينه بعد ان دمر فيضان طاغ كل المزروعات وألأشجار المحاذية للشطآن الرملية , وكأنه شاهد يرقب بحيادية تطور القرية ،و بيقظة حرص على ان لاتفوته شاردة أو واردة.

قال الحارس الليلي ،أقسم إن مايقوله شهده بعينيه وهو يجوس خلال الهضبة أثناء حراسته ، شاهد الكلاب تتسلق الهضبه وتقف على شكل نصف دائرة تتطلع الى الرجل الغريب وهو جالس القرفصاء أمامها وعلى رأسه عمامته البيضاء التي هي اكبر من أية عمامه لأي شيخ عرفه.

كانت الكلاب صامتة وفي غاية الأدب والهدوء وبعد فترة من الزمن تراجعت الى الخلف ووجوهها مرفوعة اليه ثم استدارت لتتفرق . أما زوجة شيخ الجامع وهي بالمناسبة أم لطفلة شقراء بعينين زرق والتي كانت ابنة لأحد النساطرة في القرية ولكن الحاكم التركي أضطره للنزوح عن القرية بسبب دعوته الصريحة الى تحقيق شيء من العدالة للتخفيف عن كاهل الفلاحين عن طريق خفض بعض الضرائب وحتى الغاء بعضها ، أن المرأة شاهدت ، عند أول خيوط الصباح ألأرجواني التي تتدفق الى الهضبة أولا ، كونها مرتفعة وليس لأن الفجر أو الصباح أو أول النهار يعشق أي منهم المناطق المتموجة ، كانت تقصد ان (تتغوط) مصتصحبة ابريقا من ماء النهر , وبالطبع هذه عادة التزمت بها بعد زواجها من شيخ الجامع وهجرة أبيها ألإجبارية ، تقسم انها شاهدت الرجل الغريب يكلم غرابا حالك السواد كان يقف أمامه بشيء من الخضوع , وحين طار الغراب لوح له الرجل ألأسود.

وبالطبع أقسمت زوجة امام الجامع على ان ماتقوله كان حقيقة ، وكان ذلك بخاتم ألأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام وبالمسيح الحي.

وقالت زوجة المرابي ذو العينين المتلصصتين انها فهمت الآن لماذا تسرق الغربان قطع الصابون

كما جاء في تقرير لمخفر الدرك وباللغة العربية ، كتبة أحد أفراد الجندرمة عن حال القرية وألأمن فيها (لوحظ ان الثعالب قد أوقفت هجومها الليلي المتكرر على اقفاص دجاج القرية منذ ان حل ّ الغريب ألأسود في أعلى الهضبة)).

الفصل الرابع

أنا من بلاد (النوبة)

لم تفهم النسوة المتجمعات حوله ماذا يعني ، فهن لم يسمعن بأرض اسمها بلاد

(النوبة) وكل مايعرفنه اسم القرية والعراق وألآستانه حيث يعدّ الولاة والحكام الأتراك ، وكل ماعدا ذلك فهو خارج حدود ألإدراك.

كانت المرأة التي تزوجت منذ ثلاث سنوات ولم تنجب قد تعرضت لضرب مبرح وللطرد من البيت ،بعد ان قالت ام زوجها انها منحوسة وانها لن تسمح لأبنها أن يصبر عليها أكثر من ذلك لأنهم بحاجة الى الأحفاد ليس للعمل في الحقول والبساتين وانما ليكونوا مستعدين للأخذ بالثأر إن لزم ألأمر ، كانت القرية مهووسة بالقتل والقتل المضاد حتى انه بات من المستحيل أن يمر أسبوع دون قتيل ،اثر معركة بالفؤوس و (المساحي) .

كان الوقت ليلا و غطت غيوم واطئة بقايا القمر الذي انتهت أيامه بعد ان تلألأ ثلاث ليال متوالية ، ولم يكن في الشوارع الطينية غير بضعة كلاب سائبة لحقت بها ثم تراجعت، وعلى التلة التقت(أبي صالح) الذي قال لها انه سيساعدها، وحين عادت ثانية لتتسلل الى الدار كانت تشعر انها قد استعادت تماسكها , صباحا قالت لحماتها انها لن تمانع اذا ماتزوج عليها بل انها ستعمل على خدمة الجميع.

في الشهر الثاني بدأت أعراض الحمل وشاع في القرية ان هذا من بركات الولي الذي يسكن الهضبة , وهكذا اندفعت النسوة محملات بكل انواع الطعام للتبرك و لطلب (المراد)

حين سمع الحاكم بكل ذلك طلب من شيخ العشيرة التي تسكن القرية ، والذي هو الشيخ الثالث بالوراثة ، بعد أن استولى جده على المشيخة بقتله الشيخ السابق و اولاده كافة من الذكور وتزوج ابنته الكبرى والتي كانت تمتلك أطول ظفائر في القرية والقرى المجاورة وأصغر أنف كأنه مصنوع خصيصا لوجهها النضر والذي يتجدد كل صباح ،

وكذلك شيخ الجامع , باعتباره الركن الثالث للسلطة في القرية وواسطة إشهار القوانين وألأوامر، أن يبحثا مع مسؤول الدرك في وسائل ألإستفادة من

قدرات الوافد الجديد لخدمة ألأمن والنظام والمصالح العليا.

تدارس الثلاثة أمر الرجل ألأسود الغريب وما سمعوه من انه يقول انه جاء من (بلاد النوبة) وقرروا الأستفادة مما حققه من سطوة على النساء ، اللواتي لم ينمن ليال طوال يتحدثن عن كرامات الولي ألأسود ولينسجن قصصا واساطير عن أصله وسبب مجيئة الى قريتهن وعن كرامات لم تخطر بباله.

زار الوفد الرجل ألأسود وبعد مناقشات مستفيضة ،رفض النزول الى القرية أو الصلاة في جامعها ، و أعلن وبكل صراحة انه لايفكر بالإنتقال من موضعه وانهم إذا ماكانوا يكنون له الحب فانه يرجوهم ان يساعدوه لبناء دارا بسيطة على التلة لأنه قرر ان يستقر في المنطقة.

قال: أنامن بلاد النوبة جنوب مصر ومن قبائل(الفرجة), وأرضنا بلاد زراعية واسعة وفيها النخيل ويشتغل بعض سكانها بالبحث عن الذهب وفي تلك البلاد قامت حضارة عظيمة استطاعت ان تحكم المنطقة كلها ولكن القسم الأكبر من الأراضي الزراعية الواقعة شرق مدينة اسوان قد اصبحت صحراء قاحلة ، تعرضت بلادي الى حروب واجتياحات عسكرية مختلفة منذ التاريخ الأول للإنسانية واصبحت بعد الفتح الأسلامي مصدرا لتجارة العبيد الرائجة ومنها نقل آلاف الزنوج الى أرضكم حيث عملوا في تجديد الأرض في المناطق السبخة , وشعب النوبة هو شعب الصبر والمعاناة الذي عشق النهر فأغرقه الطوفان،.

كنت جنديا في جيش السلطان محمد علي الكبير الذي عمد الى إحلال الزنوج ألأفارقة (العبيد) محل الجنود ألألبان حين قرر أن يقضي على دولة (دنقلة) شمال السودان والتي كانت قائمة على تجارة العبيد، بعد انتهاء الحملة انتقلت للعمل في مركب تجاري يعمل بين الموانئ السودانية والمصرية وبين موانئ المحيط الهندي وبحر العرب وخليج البصرة , كنا نقضي اشهرا على ظهر المركب نتحدى موجات الرعب من قراصنة البحر الذين يصطادون العبيد لبيعهم ونسلك احيانا ممرات وتعاريج في الخلجان والممرات المائية بالغة الخطورة ضحلة المياه وتشكل الصخور المرجانية مصائد للمراكب.

قال شيخ العشيرة الذي كان مبهورا وهو يثبت (العقال) على رأسه : ولكن كيف جئت الينا ؟

:-كنا نقصد البصرة ونبحر خلف سفينة كبيرة كانت مملوكة لشركة الهند الشرقية تحمل العلم البريطاني ومجهزة بحماية كافية وفجأة هاجمنا مسلحون من (رأس الخيمة) بثلاث سفن سريعة الحركة ، كانوا من (القواسم) وهم يسلبون كل شيء ويبيعون الرجال من بحارة السفن المنهوبة عبيدا فقد انشأوا صلات تجارية واسعة لهذا الغرض أما الشيوخ و المرضى فأنهم يقتلون على الفور ، كانت درجات الحرارة قد تجاوزت الخمسين وسطعت على الكون كله شمس لاهبة تغوص في المياه الهادئة بشيء من التخابث ثم ترتفع ثانية من عمق الزرقة الداكنة تشوي اطرافنا السفلية , كان القواسم الصغار الأجساد ينفلتون كالثعابين بين مركبنا والسفينة البريطانية وسيوفهم القصيرة تقطر دما ، كنا في حفلة عرس وحشي وكانت صيحات الفرح والابتهاج التي يطلقها القواسم عند كل ذبيحة تبعث رعبا باردا يجدد رجفة الخوف كموجة تكرر نفسها باصرار مجنون،

لا أدري كم مكثت أسبح بعد ان غطست عميقا لأبتعد عن المكان , بدت السفينة البريطانية وهي تغرق ، طائرا مقصوص الجناحين يجاهد للأفلات من شبكة محكمة.

في المساء وصلت اليابسة ولكن دون ان أعرف أين أنا ، تسللت عبر صخور ونتوءات صخرية على الشاطئ لأستمع الى صيادين بقارب صغير يكاد يلامس جانبيه الماء ، كانا رجل وابنه وعلمت من حديثهما اني في أرض عراقية قريبة من البصرة، تعرضت لصعوبات جمة وكنت أريد ان أصل دجلة

لألزم مجراه شمالا فقد كان هو بوصلتي الى ألأستانة ، حتى وصلت هذه الهضبة وكنت غاية في الأعياء والجوع بحيث لم أقو على المواصلة , هنا صادفت العجب الذي شدني الى هذه ألأرض وكأنه بشارة من السماء أنها مبتغاي , كان ثعلب يحمل بين نواجذه دجاجة لاتزال بعد على قيد الحياة , وقف أمامي عارضا اياها.

قال امام الجامع : هل انت فعلا تمتلك القدرة على التخاطب مع الحيوانات والطيور كما فعل سيدنا (سليمان) عليه السلام

لم يجبه مباشرة على كلامه ولكنه قال : أحب كل دواب الأرض الا القطط وعلى وجه الخصوص الهررة ؟

:-ولكن لماذا ؟

:-اولا لأن من طبيعتها الغدر فهي لاتحفظ ودا وثانيا لأنها مستعدة دائما للسرقة.

صمت برهة وسرح نظره بعيدا وكأنه يستذكر امرا

:-كان لدينا بضع بقرات فقد كان والدي فلاحا وكانت والدتي تحرص على ان تحفظ الزيت الذي تعده من الحليب بوعاء من جلد الماعز ربما يستوعب ثلاثة كيلو غرام وكان لدى أبي غير البقرات والعنزات العشر والكلبين , هرّ وقطتين، كان الهر رصاصيا بعيون لامعة وحجمه كجدي في سنته ألاولى اما القطتين فكانتا مبقعتين , وكان أبي يحرص أن يطعم الثلاث بيده لاسيما بعد صلاة العشاء حين يبدؤون التمسح به , والحق أقول كان كريما معهم،

لاحظت أمي ان الوعاء الجلدي الصغير الذي تختزن به الزيت المستخلص من الحليب الصافي بدأ بالنقصان وان الوعاء الجلدي لم يكن ممزقا ، شكت بأخي الكبير فحلف بالقران وبسورة يس انه لم يقرب الوعاء وهكذا انصب الشك عليّ، ولأني رفضت أن احلف فقد تعرضت لضرب شديد الزمني الفراش لأسبوع كامل ، كانت الغرفة الصغيرة المبنية من الطين والواح خشبية متينه قبالة مخزن المؤونه وهكذا شاهدت الهّر يدخل خلسة ويفتح الوعاء المصنوع من جلد الجدي ثم يبدأ بتناول الزيت بلذة ويعيد شدّ الفتحة ثم يخرج مختالا ليواقع القطتين بالتتابع ويتمدد على البساط الصوفي مغمضا عينيه نصف إغماضة،

وجد (الكلي المعرفة) في الضريح المنعزل مكانا آمنا يلجأ اليه بعد ان يجمع في القنينه الزجاجية عشرات العقارب السوداء , وليلا يتسلق شجرة السرو الكبيرة ليسرق من الأعشاش بيض الحمائم والعصافير حيث يلتهمها نية ويغفو على الآرض الترابية حريصا على صيده الثمين , كان سكان القرية تعتريهم نوبة ذهول حين يروه ممسكا بالعقارب ويصرح بعضهم ان هذا من علامات الساعة ولكن مدرس (البايولوجي) الذي اختفى فيما بعد كان يقول:-

حتى القنافذ تستطيع ان تأكل افعى سامة منحدرة من جبل(بيره مكرون) الشديد الأرتفاع والذي ربما توقف عنده نبي الله (نوح) ليلقي نظرة وداع أخيرة على العالم القديم قبل ان يأكله الطوفان , المسألة في التدريب وبشيء من الحماقة لا أكثر ولا أقل ، يمكن أن تصطاد نمرا فالجهل شجاعة في الكثير من ألأحيان.

لم يكن قد تم تخصيص من يقوم بخدمة ضريح الولي برغم انقضاء أكثر من مئتي سنه على بنائه و أنه ساعد القرية على تجاوز العديد من المحن , اضافة الى تلبية توسلات النساء بالزواج وبلهفة عذرية شديدة الى زوج يمكن ان يلبي مجهوده الشخصي كل الرغبات، أو با لدعوة على العشيقة الغجرية بالموت، أو على ألاقل بالمرض الذي يقعدها عن الرقص لتضمن ان لاتتبعثر تلك الجهود في نشاطات خارجية , ولكن بعض التوسلات كانت اكثر مشروعية وهي المتعلقة بألإنجاب , فالقرية تعشق كثرة ألأولاد الى الحد الذي قد لايتعرف عليهم آباؤهم وهم يلعبون كرة القدم في الشوارع الترابية.

كانت النسوة اللواتي يزرن الضريح مساء الخميس محملات بالفاكهة والخبز وانواع (المكسرات) واكياس الحناء الواردة من(الفاو) على رأس الخليج العربي ،(يقزقزن) المكسرات ويتبادلن آخر الأسرارالتي اقسمت كل منهن على عدم البوح بها ثم يعجنّ الحناء و(لبخ) الجدران الطينية كختام للزيارة ، وبالطبع يقمن بكنس الضريح ورفع الأوراق التي تدفع بها الرياح الى داخل السياج.

كان هو يتدارى خلف شجيرات العوسج وبضع نباتات صنوبرية اوراقها قصيره تختزن ماء أخضرا شديد الملوحة ، كان في عينيه لامبالاة برغم انه كان يواصل النظر الى الفتيات اللوتي كن قد تركن عباءاتهن وبانت استدارة النهدين كأنها شماما حديث الجني من سامراء يمكن ان يوضع في مجرى الماء أو في الكوة التي تنفتح في الغرف على هواء الشمال ليعطي رائحة لذيذة وطعما يذوب في الفم

كان يحلم ان يشتري بندقية , يشدها الى صدره وهو ينام في الضريح بعد ان يكون قد تناول القنفذ الثاني مشويا ، كانت أمه تقول ان القنفذ المسلوق ينشط خلايا الذاكرة , فهي مثلا لم تنس أول يوم جاءت به الى الدنيا، كانت تشعر بالدم يجري في عروقها وكأنه يندفع من بركة صقيع , حتى انهم احتاجوا الى ثلاث بطانيات من الصوف كان قد سرقها أبوها من الجيش البريطاني ، وكانت احداها تحمل أثرا تركه الكلب الذي تمسك بها بقوة فقد كان هو الآخر يشكو من البرد ومن

يومه وهي تكره الكلاب ، وقد ورث عنها حبه للقطط التي تتمسح بقدميه وهو يتناول طعاما في البيت الذي كانت فترات تواجده فيه متباعدة.

فكر لو انه مات ودفن هنا فأن الزيارات التي يحظى بها(الولي) ستكون مناصفة وسيشعر حينها برجفة البرودة التي تسببها الحناء وسيلامس النهدين المفعمين بحرارة تضج بحلمتيهما.

الفصل الخامس

قالت المرأة :- ثبّت الشمعة هنا قبل أن تشعلها ؟

قال الرجل : ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا

قالت المرأة التي إحدى عينيها من الزجاج : ماذا قلت ؟

قال الرجل : كنت أدعو لمولانا

كان الضريح قد أزيل ، وحلت حديقة دائريه امتلأ محيطها بورود ملونه ، كانت الى ماقبل ايام تزهو كأنها فردوس صغير للتعويض عن أيام بالغة الزهو والجمال رآها آدم قبل ان ينزل الى الأرض مطرودا ، فضلا عن بضع شجيرات من الصفصاف.

قال(الكلي المعرفة) ،في يوم كان غبار ناعم يتقدم نحو القرية فيما تجمعت سحب داكنة تسرع نازلة من الشمال وتسد الطرقات التي اصبحت واسعة بفضله،

الشياطين لاتعبث خارجا

بدأ سكان القرية بتلاوة القرآن

وقالت امرأة شيخ الجامع: ان الصيحة آتية ولاريب

ولكن مدرس الفيزياء الرجل الأبيض والذي ينتشر (البهاق) في يديه قال

:-ان الموضوع لايتعدى اختلاف في الضغط الجوي اندفعت فيه الرياح من منطقة الضغط العالي.

من الواضح ان هذا الكلام مردود علية لصالح امرأة شيخ الجامع اذ لم يلحظ اي من السكان في القرية ان هناك رياح ما.

قال الحارس الليلي الذي يقوم بتنظيف الجامع كل مساء قبل ان تبدأ نوبة حراسته

:-لماذا لا ينشغل بمعالجة البهاق في يديه ، أليس هذا افضل من إلغاء الإرادة الألهية التي تحكم الجن والأنس ؟

حين توجهت المرأة التي إحدى عينيها من زجاج الى بيت المحافظ لتقف على الأمر اليقين، قيل لها أن السيد المحافظ قد ترك العمل لدى الحكومة وهو ألآن في

ضريح سيدنا الولي ينظف الأرض ويقرأ القرآن طوال الليل و أن هذا سيكون مستمرا وليس لليلة واحدة

بدا من الواضح أن قرار السيد المحافظ ان يكون خادم الضريح والمسؤول عنه لم يكن قرارا مفاجئا، بالنسبة له على الأقل ، فقد سبقته ايماءات عدّة،

توقف عن الذهاب الى دار الغجرية الشابة ذات الشعر الأسود الطويل والذي كانت تطوّح به أمامه كلما رأته يرفع كأسه ، ثم توقف عن الذهاب الى دار الحكومة.

قالت زوجته : -انه لاينام منذ أسبوع وكأن به مس من الجنون يخاف من الرقاد وينظر الي بعينين زائغتين لاترياني ، تنظران الى البعيد المجهول وكأنهما تستطلعان عالما بعيدا لاأراه ، كنت استيقظ فأراه منزويا يتملكه رعب فظيع والعرق يتصبب منه وهو يردد

((واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى)) بعدها يأخذ بألأرتجاف ثم يصمت.

قال إن الولي أبو صالح يدعوه , خرج فجرا من دون أن يودع أحدا ، لم يحمل معه غير مايلبسه وبضع أرغفة من الخبز.

كانت الفتاة القادمة من العاصمة تسير بمحاذات النهر بخطى الملائكه يسندها شرطيان ويصطف جمهور على الجانبين يتطلع بعيون جائعة ، كانت نظراتهم الطويلة غبية،وكانت هي تنتظر عملية قطع الرأس.

الصبايا المهيئات للزواج كن يبتسمن ببلاهة متشفية ، تطلعت نحو (المحافظ) الذي كان يقف في آخر الصف قرب السياف الذي يتخفى بغطاء أسود ويرتدي بنطالا يشدّ بقوة على فخذيه فيما كانت بلوزة حمراء تسد الأفق تعطي صدره العريض مظهر قوة مضاعف ،

هبط مطر وردي من سماء صافية شديدة الزرقة عندما ابتسمت ، كان في عينيها عناقيد عنب تتدلى وتعد بشيء أبعد من الموت واقوى من فخذي السياف المتباعدتين والمسمرتين في ألأرض بقوة عمياء لاتعني غير العدم.

انساب شعرها المتوهج الذي تداخلت في خصله أشعة الشمس الغاربة والتي بدأت تهبط في رمال منبسطة فسيحة وكأنها بلا نهاية , شملت الجمهور بنظرة متسامحة تمنحهم عطفا وتنازلا عن حقها في ان توبخهم على هذا التجمع الاحتفالي ، في حين منحت السيد (المحافظ) نظرة تقطر احتقارا، شعر حينها أن قشعريرة سرت في بدنه ، فر من عينيها عصفوران بلون الشفق البرتقالي المحمر ويقسم ألسيد (المحافظ) انه سمع رفيف اجنحتهما وهما يعبران فوق رأسه في الصمت المترقب الذي كان يخيم ثقيلا على المكان ، حتى النهر انساب بخشوع أقرب لصلاة دعاء متوسل .لمع السيف كبرق غاضب سريع

ثم هوى على الرقبة الغضة الطرية وانبجس دم حار انساب على الجلابية السوداء .ثم غار في ألأرض الطينية الهشة

رفعت سالومي القناع السابع وشعر السيد (المحافظ) ان فورانا عاتيا يتصاعد وشاهد الشياطين الثلاثة الصغار، والذين لايمكن رؤيتهم بالعين المجردة، يرقصون بنشوة صوفية ذاهلة , لم يكن جسد سالومي دافئا , كان يبعث برودة تصك ألأسنان ، وهرب الشيطان الذي كانت منطقة نشاطه(الجبهة)السفلى فقد اصبحت المنطقة كلها صقيعا لم يعتده ،هو الذي يعمل دائما في المناطق الملتهبة.

أمر (الكلي المعرفة) بتعيين ابن أخيه الذي مازال في الصف ألأول المتوسط والذي لم يلتحق بعد بالكلية العسكرية ليحمل نجيمات ذهبية تعشقها فتيات القرية وكان ذلك قد دفعه الى ان يخاصم عمه،

أمر بتعيينه (محافظا) وبرغم إن هذا المركز لم يعجب صديقته الصبية التي كانت مولعة بمضغ (العلكة) لتصنع منها بالونات تصدر أصواتا سوقية وهي تنفجر على شفتيها الممسوحتين ، لأنها كانت تريده بالنجوم الذهبية لتغيض به صديقتها المخطوبة لضابط في الشرطة ، إلّا ان أمها أقنعتها ان المحافظ أكبر من ضباط القرية كلهم فصمتت.

حاول (الكلي المعرفة) أن ينسى قيام المحافظ بالعمل على خدمة الولي، ولكن ألأمر الذي استثاره ، هو ان المحافظ قد أطال لحيته خلال إسبوعين الى اكثر من نصف متر وان أهل القرية بدأوا يتحدثون عن ذلك في المقهى بدلا من أن يتطلعوا الى التلفاز مساء ليشاهدوا (الكلي المعرفة) وهو يزور كلية للبنات في العاصمة

فيما راحت فتاة كأنها هبطت للتو من كوكب ابيض تزغرد فتبعث فيه احساسا غائما بالفرح والنشوة.

أولاد الكلب

قالها وهو يشاهدهم يتحدثون عن الولي الذي ألهم السيد (المحافظ)

وحين قالوا له انهم استمعوا لأشرطة تتحدث فيها نساء كبار المسؤولين عن كرامات الولي الذي استطاع ان يمنح المحافظ لحية شديدة السواد الى الحد الذي يكسف لونها لون شوارب (الكلي المعرفة) ، رغم انه يستخدم صبغة شديدة الفعالية ومركزة تم تصنيعها له بعد ان أمر بأيقاف تصنيع المعدات العسكرية ليكون المصنع ألألماني الكبير في خدمة شواربه فقط ، شعر بانه يتعرض لإهانة بالغة وأنه لابد من اتخاذ عمل سريع وحاسم ، وهكذا قرر إزالة قبر الولي من المنطقة واستبداله بحديقة وسطية لشارع يلتف حول القرية ويخترق الهضبة.

رفض سائق الجرافة أن يرفع الذراع الحديدي ويغرس الأسنان الحديدية في الجدار الطيني بعد ان حاول ذلك للمرة الثالثة ، ولكن الجرافة أبت ان تستجيب له وشعر بخوف يجتاح كيانه كله وبرجفة حادة تهزه بعنف وأقسم انه شاهد الولي يقف بطوله المتعالي وبكبريائه التي تتماهى بتسامح ساحر ينظر اليه بابتسامة عذبة كأنها ندى الربيع فوق عشب الهضبة وورودها صباحا.

قال السائق انه سمع صوت الولى هادئا ، عميقا، ولكنه نافذا بصلابة لاتتناسب وانسيابيته , لم يحرك فمه ولكن الكلمات كانت تتحرك في الفضاء الذي يفصل بينهما ثم تدخل أذنيه وتتملكه وهي تسري تحت الجلد تتحكم بمسار دمه ويشعر بالعطش اذ يتملكه جفاف في فمه وفي الرئتين وكأنه سيجف تماما ، ويشعر ايضا انه يضيع.

ركن السائق الجرافة جانبا ، تعصف به مشاعر خوف تهزه بعنف وقال لزوجته

:-لقد خفت عليك وعلى ألأولاد , لن أفعلها مهما كلفني ذلك , لن اخسر الدنيا والآخرة ، مع (الكلي المعرفة) سأخسر الدنيا ولكن مع الولي سأخسر الأثنتين

قال شيخ الجامع وهو يتطلع بوله الى زوجتة الصغيره وكانت الرابعة بين زوجاته ألأحياء والتي دفع (الكلي المعرفة) كامل مهرها وهو يغمز له بعينه اليسرى التي يبدو الحاجب الراكب فوقها , أكثر غزارة بشعيرات خشنه يمكن حسابها وتضفي عليه انطباعا قاسيا حين يكورها وهو (زعلان)

:-غدا سيكون لي حديث آخر

لم تفهم مايرمي اليه ولكنها انحنت لتسكب الشاي في الكوب ، فبان نهداها الصغيران المدوران كحمامتين اشتد وجيبهما ،فقال :-

ولكن اليوم سيكون لي ايضا حديث آخر

الفصل السادس

كانت القرية كلها تشهد الجرافة التي تم جلبها وسائقها من الشركة الهندية التي تعمل في بناء السد على النهر، وترقب باهتمام العمامةالصفراء الي راحت ذؤابتها تخفق خلف السائق وهو يندفع لإزالة ماتبقى من الضريح , ثم يستدير لتسوية ألأرض.

قالت المرأة ذات العين الزجاجية : لقد انتهت القرية ، نحن ألآن بدون حام

قالت امرأة إمام الجامع: ستعود الثعالب ثانية لسرقة الدجاج , لن اشتري بعد ألآن أية دجاجات وسأشتري البيض من السوق وسنأكل الدجاج المجمد

قال الرجل : ولكنه لم يذبح وفقا للشرع

قال شيخ الجامع : يمكن حل هذا ألإشكال , سأراجع كتبي وغدا بمشيئة الله سأعثر على الحل وان يك من المقبول مبدئيا ألاعتماد على القاعدة الفقهية ،

(الضرورات تبيح المحظورات)

قال الرجل : ولكن لاتتحقق هنا (الضرورة)

قال الشيخ : هذا في الظاهر ، وعلى العموم اتركوا الأمر لذوي الأختصاص.

برغم ان النقاش استمر الى وقت متأخر وقد شارك فية(ألصبي المحافظ) الجديد وفرقة ألأعراس الشعبية والمتسول الوحيد في القرية وصانع ألأقفال العجوز وكل فتيات المدرسة الثانوية إلا ان خادم الضريح (المحافظ) السابق، قرر ان يقفل الباب ويعتكف في غرفة صغيره على السطح كانت تستخدم لما يزيد عن الحاجة من اثاث وسلع منزلية ، وطلب من زوجته ان تقدم له وجبة واحدة في اليوم وشدد ان عليها ألا تسأله ماذا يأكل ، ولكنها فوجئت في اليوم الثالث إنه قد انتحر , نعم بهذه البساطة ، نقلت الخبر الى جارتها وطلبت ان يحضر زوجها للمساعدة في نقله ليدفن فأكرام الميت دفنه.

ولكن الجاره التي تملك أجمل انف في القرية فهو دقيق , مستقيم ، ينتهي بأرنبة غاية في دقة الصنعة ، ينتصب فوق شفتين ممتلئتين، تقول أمها انه من كرستال وردي فاتن،

قالت : كان ممددا على سجادة قديمة ولم يكن تحت رأسه وسادة فيما كانت بركة صغيرة من الدم الى جانبه ، كانت لحيته الطويلة حليقة وكان الشعر مظفورا بعناية وملفوفا بجريدة الحكومة وعلى الواجهة كانت صورة(الكلي المعرفة) وهو يضحك ، لم يكن يبتسمن كان ضاحكا ، وكأن شيطانا يقف بين شفتيه فقد كانت اطياف مسحورة غاية في الخبث تتراقص هناك.

كانت الغرفة الصغيرة ، المتربة والتي لاشباك فيها يسمح بتسلل الضوء ، تنز الما وكانت تعابير وجهه المتقلصة تكشف حجم المعاناة التي كان يعيشها وقد كشفت لها امرأته عن فظاعة الكوابيس التي كان يعانيها والتي كانت تحرمه من النوم فيظل يقرأ القرآن فيما تتدحرج دموعه كجمرات ذات توهج أحمر يشع بالندم.

كانت القرية تبدو واجمة وكأن شيئا ما فقدته فجأة ، شيئا عزيزا , ولهذا فأن حيرة غامضة كانت تسيطر على الجميع وشوهدت القطط تتجول مزهوة ثم تدخل حمام القرية وتقوم بطرد الفتيات اللواتي كن يتنظفن بناء على اوامر (الكلي المعرفة) ، الذي كان يصر على ان تغتسل النساء مرة واحدة في اليوم اما الفتيات فمرتين لأن النساء المتزوجات قد انخفظت رغبتهن باقتراف الخطأ بعد الزواج ، ربما الى أقل من النصف أما الفتيات فأنهن يملئن رؤوسهن بالخطايا ليلا وعند غفوة القيلولة ، ولهذا فأن عليهن الإغتسال مرتين يوميا للتطهر من أشباح الخطايا التي تدور في رؤوسهن , ولكن القطط التي تحظى عادة برعايته وتشعر اليوم بالنصر بعد رفع قبر الولي وجدت انه لابد لها من ألإحتفال ولهذا طردت الفتيات من الحمام ، وقالت قطة شامية كانت تضحك باستمرار انه مسموح ان تعشش الخطايا في رؤوسكن المليئة بتلوث معد وان تتمدد الى الجوانب المعتمة ،لأن دهاليزها لم تسمح لشمس آب بالدخول من كوة الربيع.

لم يظهر القمر ليلتها وظلت القطط تموء فيما راحت القطة الشامية تضحك حد انها أصيبت بهستريا شديدة ، فيما أغلقت القرية أبوابها ولم تسمح للأطفال بالذهاب الى السينما لمشاهدة الفيلم الصحي ((كيف تكافح البعوض)) ، الذي تعرضه البعثة الكوبية في المقهى وعلى شاشة من القماش ألأبيض الصقيل وتوزع اثناءه مشروب قصب السكر الحلو الممزوج بشيء من الملوحة تقول

الغجرية انه من سحر قبائل مكسيكية قديمة تستخرجه من نباتات مائية تنشر رائحة التراب حين يرش بالماء عند العصر في ساحات بيوت القرية.

ظل الجميع خلف الأبواب المغلقة يمارسون عاداتهم السيئة فيما تحول الصمت ألأخرس في عيونهم التي تحمل نظرات معدنية صدئة ، الى صدى له رنين مشوش.

قالت امرأة بصوت هامس وهي تحادث جارتها من كوة في أعلى الجدار الفاصل بينهما فيما كانت واقفة على كرسي دائم الترنح يصدر صوتا ناعما تكبته حبال القنب التي ربطت بها القوائم الخشبية وتنبعث منه رائحة الخشب الرطب المخزون في مكان لاتصله الشمس باستمرار والتي تجد بعض العوائل في التخلص منه كسلعة قديمة عاشت معهم العمركله نوعا من التنكر للماضي المجيد الذي ليس من الواضح تماما أين يكمن ذاك (المجيد)

لقد ظهر الولي

اين ؟ :

رآه زوجي مساء يمشي على النهر

هل انت متأكدة ؟

لماذا ؟ اشتم رائحة الشك في كلامك

لأن زوجي رآه في شجرة الصفصاف الكبيرة ,وكانت صورته كانت تلألأ في كل ورقة مغسولة على اغصان الشجرة ، كانت أسنانه البيضاء تلمع في خضرة ألأوراق كحبات اللؤلؤ في عمق زرقة مياه البحر

هل رأيت البحر؟ :

لا ، ولكني سمعت الدكتورة في المستوصف الصحي تقرأ قصة عن البحر :

ولكن أين سينام ؟

فوق ظلال النهر

الولي غاضب فقد عاش مئات السنين من دون ان يجرأ أحد على المس به وألآن : أزالته الجرافة وعلى يد هندي كافر ، عنده الحق كله، ولكنه لن يترك ثأره انتظري وسترين ماذا سيحل بالسائق الهندي ذو الوجه البدائي المطبوع بنوع فاضح من المسكنة.

خفظت صوتها ليكون وشوشة وقالت بجدية

:-لن ينجو!

:-سينجو فهو يعرف كيف يتصالح مع الولي ، يقال انهم كانوا اصحابا وكان الولي يسمح له بسرقة بيض الحمام وانه هو الذي ابلغه بما كان عمه ينوي ان يفعل به ليلة هروبه واختفاؤه كما انه هو الذي ساعده ليكون (كلي المعرفة)

:-ربما .... تصبحين على خير

الفصل السابع

لم يكن (الكلي المعرفة) قد ذهب بعد، فهو يراقب النمل ألأبيض الذي ينتسب في أصوله التاريخية الى فريق النمل الذي كلمه النبي (سليمان) عليه السلام , كان مشغولا بالحديث عن طعم الرمان على شفتي زوجته الجديدة التي رآها مصادفة عصر يوم ربيعي رائق وتزوجها مساء ذات اليوم، وفي غرفة تبديل الملابس للمسرح الوطني، لأنه كان غاية في ألإستعجال فقد كان عليه ان يحضر مقابلة خاصة مع فريق أجنبي لمحطة فضائية كانت مولعة بعرض ألأساليب المبتكرة للرقص الشرقي في الجزر الواقعة شرقي المحيط الهادي والتي يسكنها في الغالب شيوخ نفط وامراء غاز واثرياء آخرون.

قال الناقد الأدبي ذو الوجه الطفولي والنمش على وجنتيه والمولع بالنكات الجديدة

:-لقد استدعى الخبير في الطرق المناسبة في اطلاق ضحكة تلائم ذوق سكان الجزر وتكون مؤثرة في قرارهم السياسي

تلفت ليتأكد انه مع صديقية العزيزين وأن لا وجود لجهاز تسجيل فقد أقسم لهم انه لن يعود للحديث عن اي شأن من شؤون (الكلي المعرفة) ولكن الطبع غلاب

:-لقد كتبت مقالا نقديا وسأنشره في مجلة لبنانية وبأسم مستعار

قال الصديق الثاني وهو مدرس الفلسفة في كلية الآداب : لكن ماهو الموضوع؟

:-انه عن التفسير الرمزي للغابة كمثال للوحدة،وعن رحيل الغزالة الى الصحراء والذي هو تعبير عن سنوات ستأتي شديدة القسوة

قال الصديق الثالث والذي يعمل مراقبا للبلدية وكاتبا سياسيا في صحيفة الجيش والذي كان يثرثر دائما عن ألأصول القومية لسكان شمال الجزيرة العربيه.

:- ولكن لم تقل ماهو شكل الضحكة التي سيمارسها

:-حسنا لقد سمعت الخبير يقول ان سكان تلك الجزر يفضلون أن تأتي الضحكة من أسفل البطن وان تصعد ببطئ الى الشفتين على ان لا تمتد الى العينين لأنهم ومن تجاربهم الشخصية كحكام أو كتجار يفضلون أن تبقى العينان متيقظتان ، ترقبان ردة الفعل في عيون الجالسين في المكان أو الذين يشاهدون الشريط المسجل في بيوتهم

قال مدرس الفلسفة : ولكن ما سأنشره مختلف

:-كيف ؟

:-إنه عن وحدة الوجود في جدلية اختلاف الواقع الأفتراضي في الرواية الجديدة التي كتبها (الكلي المعرفة) . لقد استدعيت امس لأستلام نسخة من الرواية وقالوا بأنهم يريدون المقال هذه الليلة ليلحق الصفحة ألأدبية بالجريدة

قال محرر الصفحة الأدبية : برغم اني لم افهم شيئا من النص إلا اني أرى انه متماسك

قال مدرس الفلسفة : ليس المهم أن يكون متماسكا أو مباشرا ،لأني كنت حريصا على ان يلائم الهدف أكثر من النص الروائي الذي كتب بروح بنيوية جديدة , كنت ولساعات طويلة ((أواصل طراد نمر آخر ، حيوان لايوجد في النثر))

قال المحرر : ماذا تعني ؟

قال مدرس الفلسفة : أنا ! ، لا أعني شيئا , هذه مقولة للروائي(بورخيس) في (النمر ألآخر) ربما ترمز الى المعاناة في البحث عن المعنى الذي يختفي خلف الكلمات

قال رئيس قسم الترجمة , والذي كان قادما للتو من الغرفة ألأنيقة التي تشغلها اربع مترجمات ، وقد اصبح بحكم العادة زائرا للغرفة قبل ان يبدأ عمله اليومي

منذ ان التحقت مترجمة اللّغة الفرنسية ، والتي كان وجهها باستدارة القمر الذي كان يعشقه وهو يتلألأ فوق قريته الساحلية المطلة بترف على البحر ألأبيض المتوسط ثم يهبط بخيلاء الى ألأعماق الزرقاء الباردة متلذذا بنعومة المنزلق وطراوة المياه

:-الموضوع بحاجة الى الكثير من الدقة .....

ولكنه لم يكمل

و قال في سره , انه نهار ربيعي رائق يمكن معه العبور الى فراغ الكسل المرهق في غرفته وهو يتطلع الى الصورة الكبيرة أمامه ل (الكلي المعرفة) بوجهه الصارم وعينيه المتفحصتين

تابع بصوت مخاتل : أن مطاردة النمر ، ليس بالتعبير الملائم ، الرواية واضحة وهي مكتوبة اصلا للجماهير وليس للنخبة ! يمكن القول انك تطارد فراشة ملونة أو حتى قبّرة تتلهى في ثنايا النثر بأساليب انثى مخادعة

قال مدرس الفلسفة : كل بحسب خبرته في الصيد

-ولكن وعلى اية حال هل اصطدت النمر ؟

كلا ، انه يختبئ في الدور السفلي للمنطقة المغناطيسية في نهدي فتاة الترجمة : الجديدة

شعر رئيس قسم الترجمه , القادم من قريته التي تظل ليال طويلة تحلم بالقمر يصعد فوق صفحة البحر ولكنها تستجيب لخدر النعاس الرخو وتغفو على الرصيف ، انه يتعرض لتحرش مهين عن طريق التعريض بعلاقته السرية بالمترجمة الجديدة ذات الوجه الربيعي الدافئ والعينين العسليتين اللتين تنضحان بدعوة شهية متخفية يجب ألأنتباه لها.

حين خرج مدرس الفلسفة قال رئيس قسم الترجمة بلهجة خطيرة وكأنه يكشف عن حالة هجوم مباشر على (الكلي المعرفة)

:-يجب التوقف عند حديثه عن صيد النمر وأرى أن ترسل مقاله ل (ألكلي المعرفة)

كان(الكلي المعرفة) في احسن حالاته يتكئ على وسادة ذات غطاء من الستان الأزرق يتطلع نحو زوجته الثالثة والتي طعم شفاهها كحبات الرمان البالغ النضج بفصوص ياقوتية لامعة ، من الممكن عدّ حباتها المتراصة بأناقة مدهشة ، وكانت هي في الساحة الترابية تضع على رأسها قبعة حمراء مزينة بشريط أبيض وتجدل شعرها الأسود على مودة (ذيل الحصان) وترتدي بنطالا من الجينز الناعم ، عريض عند الورك ويلتصق بالساقين اللتين ترتفع الى وسطهما قبة الحذاء الجلدي ، كما كانت ترتدي كنزة هي خليط من الحرير الطبيعي والقطن ،

مفتوحة عند الصدر بحيث يبدو المجرى الذي يشكله نهداها النافران عميقا داكنا يستثير امواج غبش الفجر بعد ليلة ماطرة.

كانت في الساحة الترابية تحاول ان تتهيئ لتركب مهرا بنيا بغرة بيضاء وبذيل طويل مرفوع ، اسود يلتمع شعره بتموج يستجيب لنور الشمس الذي يصل متقطعا بسبب غيمات بيضاء عالية تتدافع متلاحقة ، كانت رقبته طويلة مقوسة وقوائمه محجلة وكانت حوافره صغيرة مصقولة الجدران وصلبة ، أما صدره فقد كان واسعا وكتفاه متينا التكوين ومدفوعان للأمام.

كانت مدهوشة كونها زوجة وفارسة وكلا ألأمرين جاء صدفة، بحيث قدرت ان عليها ان تحافظ على توازنها تماما مثل بهلوان يمشي على حبل،

كان الحصان ، هديته لها بمناسبة عيد(ميلاده) , تنازل لها عنه إكراما لطعم الرمان على شفتيها المزهوتين اللتين تشعان كنور الشمس الدافئ الذي يغرق في كروم العنب آخر الموسم

:- يمكنك ان تتدربي عليه ولكن حاذري فهو لم يدجن بعد

كان هدية له من الرجل الأسمر بلحية تستدير حول ذقنه وبعينين يسكنهما بضعة شياطين من دون ان يبدر منهم ما يشيرالى اي ملل يدفعهم للخصام.

قال : هذا المهر من اصول عربية ،رغم انه جاء من فرنسا ،فهو أحد سلالة الحصان ألأبيض الذي اخذه نابليون بونابرت معه من مصر بعد معركة الأهرام وركبه في معركة (مارنغو زايسلنغ).

ولكنها لم تكن تصغي اليه كانت مأخوذة بالجمال الجامح للحصان الفتي الحرون وكان اهتمامها ينصب على :هل تستطيع أن تروضه ؟

ولكن ماجدوى ان تمتطيه وراء هذه ألأسوار العالية من دون ان يراها أحد،

ابتسم وهو يداعب المجرى الذي ينحدر باندفاع بين اليمامتين المدهوشتين وقال لها

:- يمكنك بعد ساعات ان تكوني فارسة حقيقية

كان يتشهى هذه القرنفلة البرية المنفلتة ، حتى وهي وراء هذه الأسوار كلها ولهذا وضع الحرس في كل الزوايا كما أمر أن لا تكون سرعة السيارات المنطلقة في الشارع المحاذي، والذي يبعد اكثر من ثلاثة كيلو متر، أقل من مائة وعشرين كيلو مترا في الساعة.

كانت زوجته ألأولى فلاحة وقد بذل مساع جدية في أن يجعلها تبدو كأمرأة متحضرة ، ولكنه يؤكد بأسف انه قد فشل ويردد مع نفسه (المسألة لها علاقة بالذوق), ولكن الأمر المؤلم انها بدأت تستقبله بابتسامة مليئة بكراهية عميقة حتى ليبدو وجهها المصفر ينضح حقدا وبشاعة لاسيما عندما تصر على صبغة الشعر الذهبية التي تضيف الى ملامحها خبثا بذيئا ، ولهذا قرر ان يتركها لأولادها،

أما امرأته الثانيه فقد كانت(بروتوكولية) أكثر مما يجب وهي تتصرف وكأنها أميرة من القرن الثامن عشر ، كثيرة الثرثرة عن امجادها وشديدة التزمت في البيت ، وتتصرف أحيانا بشيء من الغموض المترفع وكأنها في طقس ماسوني شديد التزمت. كانت تبحث لنفسها وهي تتحدث اليه عن طريق مواز محتفظة بسخرية ارستقراطية مهذبة في تعابير وجهها وفي نظرتها الكسولة والساحرة.

كان في البدء، مأخوذا بجمالها ولكنه اكتشف انه بحاجة الى امرأة من نوع آخر وفكّر ،ان الرجل بعد الخمسين يبحث عن امرأة تسد خفايا العشق بشهوانية وبصخب فاحش ، ولهذا فوجئ (المحافظ) ،((هذا بالطبع قبل تحوله الى خادم لضريح الولي))، برّد (الكلي المعرفة) حين كان يشرح له الوضع العام منوّها أن هناك ظاهرة أزدياد عدد العاهرات وذلك بناء على الجداول ألأحصائية للسنوات الثلاث المنصرمة

قال بصوت حاد:

ثم ماذا , هل يمكن ان تدلني على مكان في العالم يخلو من هذه الظاهرة , فضلا : عن مسألة غاية في ألأهمية اذ في حالة انعدام هذه الظاهره كيف سيتأكد الشباب الذين نضجوا انهم رجال.

تقدم رجل بملابس رسمية وانحنى بأحترام مبالغ به وهو يقدم ملف البريد ، لم يكن وجهه الجاف تماما يعبر عن اية مشاعر، ربما تنحبس في دخيلته ، حتى ان يديه تتحركان بآلية ميكانيكية وكأنه يقسم أنه لايخفي سلاحا تحت سترته المكوية بعناية كموظف استلم راتب أول شهر له في العمل , وانه بريء (ولو من باب ألاحتياط) فيما اذا وقع خطأ ما على نحو غير مقصود

كان (هو) في مزاج رائق ولم يرغب أن ينشغل كثيرا عن (قرنفلته) , قلب ألأوراق بسرعة وأشر على التقرير المقدم عن توجهات مدرس الفلسفة الذي يحاول ان يعطي تفسيرات تتميز برفض الواقع عن مسارات تؤيد ألأهمية ألأستثنائية لتعميم الفكرةالمدهشة عن (المرافق العامة) في زمن الحرب.

((يعين مستشارا ثقافيا لنا))

قال رئيس قسم الترجمة وهو يودع المترجمة الجديدة : لقد وجدت وظيفة في مدينة ساحلية طالما كنت أحن اليها وقد وافقت الجريدة على سفري

قام محرر الصفحة ألأدبية برفع تقريره من ألارشيف من باب ألاحتياط

قال مدرس الفلسفة : يبدو ان سوء فهم قد حصل , سأغادر في أول فرصة

قال الرجل : لم يبق من العاصفة الا الغصن الكبير الذي أسقطته الرياح أما الكلب فقد رحل شرقا ولكن الغزالة فضلت الصحراء أخيرا

قالت المرأة : هل رأيت الشمعة ؟

قال الرجل : نعم ، وكانت ماتزال تعطي نورا كابيا في ضوء الشمس الشتوي المتقطع ولكني لم أر الولي على شجرة الصفصاف ولم ألحظ صوره على ألأوراق الندية وقد بحثت في ظل النهر فوجدت خيالا باهتا حيث كان يغفو ليلا.

قالت المرأة : ولكن هناك امر آخر

قال الرجل : ماهو

قالت المرأة : وتدفع البشارة

قال الرجل :نحن نحتاج الى البشائر والا سيأخذنا اليأس أو الجنون . وتابع،

ولكن ألا تعتقدين ان اليأس في نهاية ألأمر هو جنون على نحو ما ، على اية حال هل عاد (الكلي المعرفة) ؟

قالت المرأة : كلا ، ولكنه لن يعدّ النمل الأبيض بعد ألآن ولن يشغل تفكيره تحديد درجة الخصوبة لدى ألأناث

قال الرجل : ماذا إذا

قالت المرأة وهي تلقي بعلبة حبوب منع الحمل في حاوية القمامه : احزر

قال الرجل : لقد حصلت المعجزة , وأخيرا سيكون لنا ولد

قالت المرأة : ربما اثنين ،

قالت الطبيبة:لديك توأمين !

الفصل الثامن

يوم ولادتها حدث أمران ...أعلن التلفاز في غرفتها إن (الكلي المعرفة) تم اعلان جنونه رسميا ،وترك القطة الشامية عند باب خشبي في محلة الفضل ببغداد ...وبدت فراشة ملونة تجاهد في الدخول الى الغرفة فتصطدم بزجاج الشباك الذي تم تنظيفه بعناية فائقة

قالت :ربما يحتاج الأمر الى تفسير ....(الكلي المعرفة) يصاب بالجنون فيما ترف الفراشة حول الشباك

حين توجهت بنظرها الى التوأمين ،كانا يتطلعان الى بعضهما ، لاح في نظراتهما لؤم غريب وكأنهما يتواطئان

قال الرجل :هل تعتقدين انهما يعرفانه ؟

قالت المرأة :لم أعد اعرف شيئا ...ساعد الفراشة على الدخول فقد نعرف منه

بدت الفرشة سعيدة وهي تصفق بجناحيها عبر الغرفة المفعمة برائحة الدواء وبقايا الطعام في الصحون المركونة الى الحائط ، فيما أخذ التوأمان يبتسمان بحبور ،قالت الفراشة ... لنلعب في الممر !...تابعها التوأمان بفرح غامر محدثان ضوضاء ناعمة وهما ينسلان من سريرهما.

قال الطبيب المناوب :لابد ان تخرجوا جميعا...لم تعد هناك من حاجة لبقائكم في المستشفى ...ستفسد الفراشة كل شيئ ....والكلي المعرفة أخرج من المستشفى الى السجن ...والفراشة تعرف ذلك لأن بريمر هو من اخبرها حتى قبل ان يأمر بإعلانه على التلفزيون العراقي

قالت المرأة :لم يعد الامر مهما

قال الرجل :من الافضل أن نذهب جميعا الى البيت

قال التوأم الاصغر :لن يكررها(بريمر) اللئيم

قالت الفراشة :انتبهوا ...الرغبات تتخفى وراء ضباب مبهم

لم يعلق احد

في الطريق ظل سائق سيارة الأجرة مبتسما

قالت المرأة : لا أرتاح للرجل الأحول

قال الرجل :خلقة الله

قالت المرأة :اشعر انه يعريني ...عيناه تنظران باتجاهين مختلفين ،الاول الى الخارج والثاني الى الداخل

قرص التوأم الصغير أخيه الذي كان ينصت باهتمام فصرخ بغضب :أنت وبريمر في جهنم

قال الصغبر :اية جهنم ؟...الحمراء ام الصفراء ؟

رد الكبير :الحمراء بلون وجهك الغبي

عند الباب كانت الغزالة تتطلع نحو السيارة بلا مبالاة وهي تدفع الكلب بالرجل الخلفية اليسرى

قال السائق :هل اساعدكم بحمل الطفلين الى الداخل ؟

قال الصغير:وهل تضمن انك ستصعد درجات الباب ؟

قالت المرأة :لا

كانت تتشائم من حوله فيما بدأت تقرأ ((قل أعوذ برب الناس))

اشعل الرجل الشمعة الوحيدة

لم يزرهم أحد من القرية ، كان الجميع مشغولين بتفحص الجنود الأمريكيين الذين يتوددون بعصبية ويقدمون قطع البسكويت للأطفال

قال التوأم الصغير :لن اتناول البسكويت الامريكي

التفت الى أخيه ...وتابع هل ستأخذه ؟

:-لست جائعا

قال التوأم الكبير :سيعرضون الليلة (الكلي المعرفة) على التلفاز. ..هل سنشاهده ؟

قال الرجل –لا

قالت المرأة –كانت زوجته تقضي النهار باللعب معي ، ولكنها لم ترغب برؤيتي حينما زارت القرية قبل عامين!!

قال التوأم الصغير-انا لم أره ....سأبقى وحدي

قال التوأم الكبير –سأكون معك

قالت المرأة –التلفاز لايعمل ...الكهرباء متوقفة

قال الرجل :اللعنة .....سيعرضون (الكلي المعرفة) مساء

قال التوأم الصغير :سأراه

قال الرجل :كان منذ الصغر شريرا ...انت تذكرني به

لمعت عينا التوأم الصغير بعدوانية وهو يضع السكين التي كان يقلّم بها رأس الغصن الجاف الذي يعمل على أن يصنع منه سهما للقوس الذي نزع من أجله الشريط المطّاطي من (لباس)ابيه الابيض الطويل

قال الرجل :ستذهب الى الملا

قال التوأم الصغير :ليذهب اولا ابنك الكبير ...ربما سأتعلم منه

أضاءت الشاحنة الامريكية التي وقفت في أول الشارع ،الامتداد المستقيم ، وحفزت الصبية الى الخروج مستطلعين فيما كانت امهاتهم يحاولن بجهد شاق منعهم

وقفت الغزالة على قائمتيها الخلفيتين تتطلع من فوق السياج الى التوأم الصغير بارتياب ،شيء من القلق ساورها ،سألها الكلب الى ماذا تنظر ، ولكنها لم ترد ، قفز الكلب فوق السياج ولكنه لم يتمكن من التوازن فوقع،

قالت الغزالة :علينا ان نعود الى الصحراء

قال الكلب : الامر لا يعنيني فهم لا يأكلون الكلاب

قالت الغزالة :ولكنهم يتلهون بتعذيبها

قال جندي امريكي اسود :نعم لقد خبرت ذلك

قال الرجل :اسمعي ...عليك ان تنتبهي الى إبنك ...كان الكلي المعرفة في الصف ... الاول الابتدائي يتلهى بتعذيب التلاميذ ...وقد عرفت لاحقا انه يتعلم

قالت المرأة :اسرع فهم يعرضونه

توقف الرجل مبهورا ،كان (الكلي المعرفة) يتطلع بعينين زائغتين لا تركزان ،وبدا كأنه يمشي نائما فيما يلفه ضباب متقطع يخفي معالمة التي شاخت خلال الاشهر الثلاث التي قضاها مختفيا

قال التوأم الصغير :لن اكون مثل هذا

! قالت الام :اعوذ بالله من شر ما خلق...لن تكون

قال الرجل :من يصدق

قالت المرأة :السمكة في النهر تسبح بكل الاتجاهات ولكنها تتصرف ببلاهة في الصندوق الزجاجي

قال الرجل : ماذا

قالت المرأة :كان يصطدم بجدران الحوض الزجاجي ولكنه لم يدرك ان هذا سيقوده الى الجنون

قال التوأم الكبير :لن العب معه

قالت الام :افتح الباب ، شخص ما يلح بالطرق

كان جنديا امريكيا يضفي عليه شحوب المساء انطباعا حزينا بالغربة،يحمل كيسا ملونا قال انه هدية للصغيرين اللذين راهما عصرا يلعبان مع الغزالة امام الدار فذكراه ببنتيه، كان يتكلم عربية (مكسّرة). قال الرجل :شكرا

عاد الجميع الى التلفاز ....يقف(الكلي المعرفة) مستغربا ولكنه يبذل جهدا للحفاظ على الانطباع المتعالي

قال الرجل : اعرفه حينما يكون مكابرا ...في بؤبؤ العين يستقر خوف مراوغ ليس بمقدوره ان يحجبه

قالت المرأة :هل تعتقد أن توأمنا الاصغر سيكون بذات.....

قال الرجل :لا تكملي ...إنه لن يكون

قرأت المرأة سورة (أعوذ برب الفلق)بصوت مرتفع ونفخت على رأس التوأم الصغير .....لم يعرها اهتماما ، وقال :لن يفلت هذه المرة ،السهم سينفذ حتى القلب.

تطلعت المرأة الى زوجها بارتياب فيما ساورها خوف مبهم ،ولكن تدفق موجات من الغيوم الداكنة والثقيلة شغلها عن متابعة التفكير وصرخت :لنجمع الاغطية في الخلف

قال الجندي الامريكي :هذا ما يحصل عندنا ايضا

اندفع مطر بقطرات كبيرة متلاحقة وبدت الهضاب الممتدة حتى ضفة النهر كأنها شواهد خرافية ، وعلى الجانب الاخر حيث تقف اشجار النخيل المتراصفة على امتداد الضفة الغربية والتي جاء بها (الكلي المعرفة)من مدينة الفاو في اقصى الجنوب العراقي ، بدا المنظر مغرقا بسريالية بلون واحد ،يكشف عن تواطؤ النخيل في التمنع بالحمل.

قال الجندي الامريكي :سنتحرك غدا الى الجنوب

قال الرجل :لماذا ؟

قال الجندي :كنا نساعد في الكشف عن (الكلي المعرفة)...والان انتهى كل شيء ويوم العيد سيتم غلق القضية .....كنت استلقي على التلة الكبيرة حيث نام كلكامش وارقب النجوم ....لقد آمنت وانا في الجامعة ان كلكامش كان فلكيا وان كل الاديان السماوية او الارضية هبطت في الليل من ممرات النجوم ....وحينا عرفت الكثير ، كانت الأفعى تحاول القضاء علية ...كنت مستغرقا أقرأ في علامات النجوم حين شعرت بها تقضم حذائي العسكري السميك ...لم تقض عليها الاطلاقة

الاولى فانتصبت كعصا من الخيزران المرن ، ذكرتني بعصى النبي موسى، كانت الرصاصة في منتصف الوجه....شعرت بسعادة غامرة فقد انتقمت لكلكامش

سحب التوأم الصغير ردن قميص ابيه

هذا مجنون .....في التلة الكبيرة مئات ألأفاعي وهي تتوالد كأرانب ابو صنكور ...كيف عرف أفعى كلكامش ؟

قالت المرأة : ولكنه جندي ...كيف يكون مجنونا وهو يقود دبابة؟

قال الرجل :ولكن ماعلاقته بهذا الكامش

قال التوأم الكبير:ليس الكامش ...انه كلكامش ، ظل يومين ينام على التلة الكبيرة فسرقت الحية كنزه، وحين حضرته الوفاة كان حزينا لأنه لم يقتل الأفعى

قال الجندي : لابد أن اودعكم ...انتبهوا فقد يعود أنصار الكلي المعرفة الى قريتكم .....وربما يخربوا بيوت الحيات في التلة الكبيرة لتهاجم القرية وتاكل الصغار

قال الرجل :اولاد الكلب

من وراء السياج المشيّد من البلوك الكونكريتي ، نبح الكلب بحرقة وحاول ان يتسلق السياج لكنه فشل

حين فتح الجندي باب السياج عائدا الى دبابته ، مرق الكلب الى الداخل وانتصب امام الرجل محركا رأسه ببطئ الى اليمين ثم الى اليسار

قالت المرأة : هل أطعمه ؟

قال الرجل : لابأس

أعاد التوأم الكبير فتح جهاز التلفاز ،كان الكلي المعرفة مكتئبا ، ولكن النظرة اللئيمة كانت ما تزال تملأ فضاء عينيه وتلتمع بطيف متوعد،قال بانه يملك السيطرة على الافاعي في الهضاب الممتدة مع مجري دجلة جنوبا وانها ستنطلق ،دونما تمكن اية قدرة على التحكم بها ،اذا تم قتله صباح يوم يتقدمه فرح مفتعل ، وحينها سيهرب الناس من القرى على امتداد النهر وستكون فوضى غير خلاقة

،فوضى هي جزء من طبيعة ثورة الطبيعة وهي تدفع مياه دجلة الى الشوارع والبيوت.

قال الرجل :-يصنع الخوف من أجزاء الحقيقة التي فرطها في الكويت

سدت الغيوم فضاء القرية ،وفتح الجندي باب الدبابة ،هطل مطر صاخب وسرعان ما تشكلت مسارب مياه تتخلل الهضاب لتصب في النهر الذي بدا مغضبا بلونه الغريني ،ودفع بالمياه بوتيرة متسارعة ،

قالت المرأة :لقد تخلصوا منه

قال الرجل :ربما وربما

قال التوأو الكبير :لنستعد لمواجهة الافاعي ،المياه ستعمل على اخراجها من بيوتها

قال التوأم الصغير:أنا والكلب سنحرس الباب

قالت المرأة :لولا المطر لأشعلت النار حول البيت فالأفاعي تخاف منها

قال الرجل :سننتقل صباحا

حين استيقظت الاسرة لم يك ضوء الشمس يجد طريقا يخفف به من عتمة سماء القرية ،ولكن صوتا حادا ومحشرجا كان يقطع الصمت والظلمة.

قالت المرأة :خيرا ان شاء الله

قال الرجل :سأعرف ما يجري ...ربما قرر بريمر العودة ثانية ،لم ارتح لما قاله الجندي الامريكي

المطر لم ينقطع طوال الليل ،عند الباب الكبيرة التي كانت مشرعة ،كان التوأم الصغير يدخل مسرعا فيما يسح من ملابسه الماء.

(جرافة ترفع قبر أم (الكلي المعرفة:

من يفعل ذلك.. قالت المرأة

اجاب التوأم الصغير بنبرة محايدة :ابناء الحاج عليان

قال الرجل :انهم يستردون أرضهم

قال التوأم الكبير :الجميع سيفعلوها

قال الرجل :اما نحن فسننتقل الى مكان آخر، فالأفاعي لن تترك القرية ودجلة لن يحمينا

ظل الفجر معلقا تذوب خيوطه الرقيقة في زخات المطر المتواصل وتتاكلها دكنة الغيوم الكثيفة ،فيما بدت الهضاب على دجلة شديدة القتامة، ولا يقطع الصمت الموشى بقطرات المطر إلا صوت جرافة أولاد الحاج عليان.

أحرنت السيارة (البك أب) ، ولم ينفع معها محاولات بدفعها ليدور المحرك ، وبدأ المطر يتسرب بفظاظة الى الاثاث فيما تعمل الريح الشمالية الباردة حد التجمد ،على تحويل الفرش والاغطية الى قطع صلبة مع مضاعفة وزنها ، وقد لحظ الرجل ذلك من عجلات السيارة،

قالت المرأة : لماذا لانستعين بسائق الجرافة

قال التوأم الاصغر :انه سلمان ابن عليان ...هل أناديه ؟

قال الرجل :لا ...سأذهب أنا اليه

كان سلمان الذي انهى دراسته الابتدائية وتفرغ للعمل في الزراعة مع أبيه قبل أن يستولي (الكلي المعرفة) على أرضهم ليخصصها لقبر أمه التي كان زائريه ينتظرون دورهم على امتداد اكثر من مئة متر، وحين افترح الخبير الاقتصادي (حسن الجامع) وضع سياج حلزوني لتنظيم الدخول واختصار المسافة ،(صمت الكلي المعرفة) فمثل هذا الاقتراح بالغ الخبث ، يحاول ان يستبعد المنظر المهيب الممتد افقيا بمظر كاركتيري كما في مواقف انتظار زوار دور السينما امام شباك التذاكر ، أمر ان يجدوا له ما يتناسب وهذا التجاوز ...ويذكر سلمان ان الخبير لم يحصل على قبر بمتر واحد يمكن ان يظل فيه واقفا حتى الانتهاء من حساب القبر.

توقف سلمان عن العمل في الزراعة وارسل الى الكلية العسكرية مع التوصية بتسريع تخرجه ليلتحق بالجبهة الشرقية ،وحين توقفت الحرب

تم تنسيبه الى جهاز الامن الخاص ،ولكنه لم يباشر في عمله ،وقال لصديقة انه سئم من رؤية الدم في الجبهة ،حين كان في فريق الاعدامات للمتخاذلين وأنه يرى ان الوظيفة الجديدة ليست بعيدة عن سابقتها

قال سلمان :يمكن تشغيل السيارة فهي بحاجة الى دفعة قوية لتحرك البطارية التي تأثرت بالبرد وبعدم التشغيل فترة طويلة.

توجه الى الرجل: ولكن لماذا ترغب بالانتقال

قال الرجل :-توقف العمل وانا الان رب اسرة...وقد تندفع الافاعي من الهضاب المطلة على النهر

قال سلمان :انت فلاح قبل أن تتحول الى سائق ...ونحن سنعيد زراعة ارضنا وبحاجة الى خدماتك ...اذا وافقت سأدفع لك سلفة مقدما لتعيد ترتيب أمورك وأجزم انك في العمل منذ اليوم ... أما الافاعي فسنتعاون على اخراجها من مخابئها وندفع بها الى النهر ، حيث تموت.

قال الرجل :-ولكنها لن تموت فأفاعي التلال يمكن ان تعبر النهر او او تذهب منحدرة مع الماء الى الجنوب ....كان الولي النوبي ،كما سمعت من أبي ، يقول افاعي التلال غير افاعي بيرة مكرون ، ومن اجل التخلص منها لابد من قتلها في مخابئها ،

قال سلمان :-نعم سمعت ذلك ،سأذهب الى الصيدلي ليصنع لنا السم المناسب وسندفع به الى مخابئها مع الفئران

قال الرجل :-يردد أبي دائما مقولة الولي النوبي "حينما تبدأ محاربة الافاعي عليك ان تقرر مسبقا ابادتها بالكامل ،لأنها خطر قاتل على كل ماهو متحرك من الطفل الى الشيخ"

اما (الكلي المعرفة) فقد كان يؤكد على الحماية منها وليس القضاء عليها ،فهي ربما تشكل حليف ضد العدو....وحين استفسر ذو الوجه الاحمر المعروق "كيف يكون ذلك "؟ ...التفت اليه الكلي المعرفة قائلا ...لو تخلصت ولو قليلا من غباءك لعرفت كيف يكون ....حسنا نستدرج العدو الى مخابئ الافاعي ...هل فهمت قال الرجل ذو الوجه الاحمر "نعم سيدي"

تابع الرجل :هذا هو الفرق بين السياسة والدين ....في السياسة هناك مرونة موضوعية ، اما في الدين فالامر مختلف ، لأن اوامر الله يجب ان تطبق بدقة

قال سلمان: نحن سنقضي عليها .....سترون ذلك.